الباب الأول

المدينة بين التطور التاريخى والنظرية الاجتماعية

obeikandl.com

الفصل الأول

المدينة عبر التاريخ

اهتم كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع بدراسة الظروف التاريخية التى أسهمت فى ظهور المدن بما تمثله من خصائص اقتصادية وسياسية وثقافية • ويبدو أن هناك اتفاقاً ملحوظاً بين هؤلاء المؤرخين والعلماء على أن المراكز الحضرية الأولى قد ظهرت منذ سبعة آلاف عام فى دلتا وادى النيل بمصر ومنطقة ما بين النهرين فى العراق ، ثم نشأت بعد ذلك مراكز أخرى فى وادى السند بباكستان وحوض النهر الأصفر فى شمال الصين • أما فى العالم الجديد فقد نمت المراكز الحضرية على ساحل بيرو وفى المكسيك قبل بداية العصر المسيحى • ولقد أوضحت الدراسات التاريخية أن هذه المناطق كانت تضم مساحات ضخمة من الأراضى المنزرعة التى تكفى فى ظل الظروف الطبيعية لمعيشة أعداد كبيرة من السكان • وفضلا عن ذلك عرفت هذه المناطق نظام الرى المنتظم مما أسهم فى تدعيم الارتباط بالزراعة كمصدر أساسى للنشاط الاقتصادى • ومن وجهة النظر الاجتماعية ارتبطت هذه العناصر بظهور حياة جماعية واضحة المعالم • فعلى سبيل المثال أوضح بعض الباحثين أن هذه المناطق قد شهدت ضروباً من التدرج الاجتماعى تعكسه الاختلافات العديدة بين المبانى وما يرتبط بذلك من سلع مادية • والمحقق أن ظهور المدن قد ارتبط بازدهار الثقافة المادية والفنية ، فضلا عن تطور صناعة المعادن ووسائل النقل والكتابة [1] •

ويبدو أن التطور الذى طرأ على نظام الرى فى مناطق العالم القديم قد لعب دوراً كبيراً فى ظهور بدايات التحضر • فبفضل هذا التطور أصبح

---

(1) G. W. Dimbledy (ed); Man; Settlement, and Urbanism; Schenkman; Cambridge; Mass; 1972, p. 276.

بالامكان زراعة مناطق كبيرة متصلة ، مما أسهم فى رفع عائد الأرض بالنظر الى حجم العمل المطلوب • والواقع أن حاجة هذه المناطق لمراقبة مشروعات الرى الضخمة قد أسهم فى جذب هذه المدن للمتخصصين والتجار[١] • على أن نمو المراكز الحضرية قد خلق بذلك منافسة بينها من أجل الحصول على الأرض والماء • ومن المحتمل جداً أن يكون ذلك سبباً قوياً يفسر لنا الحرص الشديد على بناء مواقع دفاعية واقامة نظام عسكرى • وبغض النظر عن مدى أهمية وأولوية الدور الذى لعبه نظام الرى فى نشأة التحضر ، الا أن الشواهد التاريخية تؤكد ظهور مراكز حضرية لاحقة فى مناطق أخرى نتيجة للنمو السريع الذى طرأ على التجارة[٢] • كما أن بعضاً من هذه المراكز قد ظهرت نتيجة للحاجة الى اقامة مواقع دفاعية ضد الاتجاهات التوسعية التى تكونت بفضل تعاظم القوة العسكرية للدول الجديدة ، وضد الغزاة الرعويين الذين أصبحوا موضعاً للخطر خلال نفس الفترة • ومن الواضح أيضاً أن هناك شرطاً أساسياً ضروريا لنشأة المراكز الحضرية الأولى هو تطوير أساليب انتاج الطعام حتى يمكن مواجهة احتياجات الأعداد الكبيرة من السكان • وفى حدود البيانات المتاحة لدينا فلقد كانت المجتمعات المحلية الزراعية المتمثلة فى القرى هى الشرط الأساسى الضرورى لظهور الحياة الحضرية • ومعنى ذلك أن « الثورة الحضرية المبكرة » قد نشأت فى اطار عملية التحول نحو انتاج الطعام ، لكنها ارتبطت ــ فى نفس الوقت ــ بعدد من التغيرات التكنولوجية الهامة • ويميل بعض الدارسين الى تحديد الأدوار التى لعبتها التطورات التكنولوجية فى ظهور المراكز الحضرية فى مختلف مناطق العالم • فاذا كانت المراكز الحضرية فى مناطق العالم القديم تدين فى وجودها لبدايات انتاج الطعام خلال العصر الحجرى الحديث ، فان المراكز الحضرية فى مناطق العالم الجديد قد نمت دون أية تطورات

---

(1) A; Robert; The Evolution of Urban Society : Early Mesopotamia and Prehistoric Mexico; Chicago : Aldine Publishing Company; 1965.

(2) B. Robert and G. Willey (eds); Courses Toward Urban Life; Chicago : Aldine Publishing Company; 1962.

تذكر فى صناعة المعادن أو أية تحسينات هامة فى وسائل النقل • ويبدو أن التطور الذى طرأ على وسائل النقل فى العالم القديم وعلى الأخص إستخدام الطاقة الحيوانية قد أسهم فى توسيع المناطق التى تضمن مصادر الطعام للمراكز الحضرية[١] • وهنا تجدر الاشارة الى نقطة هامة هى أن مجتمعات الفلاحين لا تظهر الى حيز الوجود ما لم تكن هناك وسيلة لتبادل فائض الطعام فى مقابل سلع أخرى • لقد أدت وسائل النقل البرية والبحرية الأكثر تقدماً الى توسيع نطاق التجارة عبر مسافات بعيدة ، مما كان له أكبر الأثر فى نمو المراكز الحضرية الأساسية وظهور مراكز حضرية تابعة •

وتميل بعض الدراسات التاريخية الى أبراز الآثار السكانية الناجمة عن التطورات التى طرأت على الزراعة وعلى الأخص فيما يتعلق بكميات الانتاج الزراعى • ان زيادة المنتجات الزراعية يعنى القدرة على مواجهة الاحتياجات الأساسية لأعداد متزايدة من السكان[٢] • كذلك كان لظهور القرى « الزراعية » المستقرة فى فجر التاريخ أكبر الأثر على التطور التكنولوجى بوجه عام خلال تلك الحقبة التاريخية • فلقد تطلبت زراعة الأودية اقامة مشروعات الرى حتى يمكن التحكم فى المياه على مدى فترة زمنية طويلة نسبياً • ومن الطبيعى أن تسهم هذه الظروف الطبيعية فى ظهور تنظيم اجتماعى « أولى » • ذلك أن أعمال الرى كانت تتطلب قدراً من العمل الجماعى المشترك حتى يمكن مواجهة أخطار الفيضانات ، فضلا عن الهجمات التى قد تشنها الجماعات المعادية • كذلك فلقد كان لتطور وسائل النقل النهرى أكبر الأثر فى تدعيم هذا النمط من الاستيطان البشرى• ففى مصر كان النيل هو وسيلة النقل النهرى الأساسية التى أتاحت الفرصة لتجميع فائض الطعام فى مراكز حضرية محدودة • ومثل هذا عن دجلة

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، الجزء الأول ، ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٦ ، الفصل التاسع .

(2) G. Lenski; Human Society; McGraw-Hill; New York ;1970; p. 164.

والفرات فى العراق يقال • وبحلول القرن الثالث قبل الميلاد استطاع الفلاح المصرى أن ينتج من أرض وادى النيل ثلاثة أضعاف حاجاته من الطعام[١] • وهناك خلاف واضح بين الدارسين المعنيين بنشأة المدن حول العلاقة بين ظهور المراكز الحضرية وتحقيق الفائض الاقتصادى • اذ يذهب البعض الى أن وجـــود هـــذه المراكز كان ظرفاً سابقاً ومهيئا لحدوث فائض الانتاج الزراعى ، بينما يذهب البعض الآخر الى أن هذا الفائض قد شكل عاملاً مساعداً على نشأة هذه المراكز الحضرية المبكرة • وبغض النظر عن أسبقية وجود هذين العاملين ، فاننا نميل الى الاعتقاد بوجود علاقة متبادلة بينهما أسفرت فى نهاية الأمر عن ظهور بدايات التحضر •

وخلال السنوات الأخيرة ظهرت محاولات نظرية عديدة للتعرف على ظروف نشأة التحضر • وربما كانت أشهر هذه المحاولات تلك التى قدمها جوردن تشايلد Childe ، حيث نجده يحدد بعض ملامح ما أطلق عليـــه « الثورة الحضرية المبكرة » •ومن بين هذه الملامح : الاستيطان الدائم فى صورة تجمعات كثيفة ، وبداية العمل بالنشاطات غير الزراعية ، وفرض الضرائب وتراكم رؤوس الأموال ، واقامة المبانى العامة الضخمة ، وظهور طبقة حاكمة مسيطرة ، وتطور فنون الكتابة ، وتعـــلم مبادىء الحســـاب والهندسة والفلك ، واكتساب القدرة على التعبير الفنى ، ونمو التجارة[٢] • وعلى الرغم من الانتقادات العـــديدة التى وجهت الى هـــذه المحـــاولة النظرية[٣] ، الا أنها تعد خطوة أولى نحو دراسة الظروف المهيئة لنشأة المدن • بل إن دراسات حديثة عديدة قد أوضحت أن «الملامح» التى حددها تشايلد قد توافرت تماماً عند دراسة المراكز الحضرية المبكرة التى نشأت فى منطقة ما بين النهرين (دجلة والفرات) •

---

(1) R. July; A History of the African People; Scribner's; New York; 1970; p. 14.

(2) G. Childe; What Happened in History; Penguin Books; London; 1964.

(٣) من بين هذه الانتقادات أن الكتابة لم تعرف فى مناطق امريكا الوسطى برغم ظهور مراكز حضرية مبكرة فيها .

وأيا كان الأمر فإن كل الشواهد التاريخية المتاحة لنا الآن تؤكد أن هذه المراكز الحضرية المبكرة كانت صغيرة الحجم سواء من حيث المساحة أو عدد السكان • فأكبر هذه المراكز لا يتعدى فى حجمه أو عدد سكانه قرية كبيرة معاصرة • بيد أننا لو تبنينا المعايير الموضوعية للحكم ، قلنا إن هذه « الثورة الحضرية المبكرة » قد أنجبت مراكز حضرية يبلغ عدد سكان كل منها عشرة أضعاف عدد سكان القرية الواحدة خلال العصر الحجرى الحديث • لقد كانت بابل بحدائقها من أعجب عجائب العالم القديم حيث وصلت مساحتها الى أكثر من ثلاثة أميال مربعة[١] • كما أن مدينة أور التى نشأت عند ملتقى دجلة والفرات قد اتسع نطاقها الجغرافى حتى وصل الى أكثر من ٢٥٠ فداناً وضمت أكثر من ٢٤٫٠٠٠ نسمة[٢] • ومع ذلك نجد هاولى Hawley يذهب الى أنه برغم الضخامة النسبية لهذه المراكز الحضرية ، الا أنها لم تكن تضم أكثر من ٣٪ من مجموع سكان الأقاليم التى تقع فيها[٣] • بل ان اثينا فى عصرها البطولى لم تكن تضم داخل جدرانها أكثر من ميل مربع • وربما كانت المدن الرومانية هى أكبر مدن العالم القديم ، على الرغم من أن مساحة مدينة روما فى قمة مجدها وازدهارها لم تتعد خمسة أميال مربعة • كذلك نجد كنجزلى دافيز Davis يذهب الى أن أكبر المدن الضخمة التى سبقت الحقبة الرومانية لم تكن تضم أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة • اذ أن مستوى الفن الانتاجى الزراعى لم يكن قد تطور على النحو الذى يسمح بظهور تركز سكانى واضح فى المدن[٤] • ومعنى ذلك أن أحجام المدن فى المناطق الزراعية كانت محكومة — الى حد بعيد — بكمية الفائض الاقتصادى وتطور أساليب نقله •

---

(1) Kingsley Davis; «The Origin and Growth of Urbanization in the World»; American Journal of Sociology; 60 : 430; March; 1955.

(2) G. Childe; What Happened in History; op. cit; p. 68.

(3) Amos Hawley; Urban Society; Ronald Press; New York; 1971; p. 22.

(4) Kingsley Davis; op. cit; p. 430.

والواقع أن قضية عدد سكان هذه المدن القديمة تتضاءل كثيراً أمام قضية أكثر أهمية هى الدور الاجتماعى الذى لعبته هذه المدن ، خاصة اذا ما علمنا أنها كانت مهد التجديد فى مجال التنظيم الاجتماعى • فعلى الرغم من ضآلة عدد الأفراد المكونين « للصفوة الحضرية » ، الا أنها قد أسهمت فى نقل كثير من القيم الثقافية ، وبلورت معالم حضارة انسانية متكاملة • ولسنا بحاجة هنا الى توضيح التأثيرات الاقتصادية والسياسية التى تمارسها المدينة على أفراد المجتمع بوجه عام • فلقد أوضح ابن خلدون فى كتابه « المقدمة » قبل ستة قرون كيف أن تركز القوى الاقتصادية فى المدن يؤدى الى حدوث تباين بين النمط الاقتصادى فى كل من المجتمعات البدوية والحضرية[1] • كذلك نجد بيرت هوسليتز Hoselitz يذهب الى أن تركز الوظائف الحكومية والتعليمية فى المدن قد أسهم فى ظهور متطلبات جديدة تؤثر على أنماط الانتاج • ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار « مدينة ما قبل الصناعة » Preindustrial City بمثابة « جزيرة حضرية » فى بحر ريفى • ومن الطبيعى أن تسهم الكثافة السكانية فى ظهور ثقافة حضرية تؤكد أهمية التجارة والصناعة التحويلية والخدمات • والمحقق أن المدن القديمة قد شهدت تنظيماً اجتماعياً يفوق كثيرا فى تعقيده ذلك الذى عرفته القرى خلال العصر الحجرى الحديث • وتشير الشواهد الأركيولوجية الى أن المعابد كانت من أقدم المبانى العامة التى شهدتها المراكز الحضرية العتيقة ، وأن رجال الدين والكهنة كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة لا يتمتع بها الأفراد العاديون • ولقد لاحظ علماء الآثار وجود اشارات على جدران المعابد توضح أن الكهنة كانوا يؤدون أدواراً اقتصادية بالاضافة الى أدوارهم الدينية • وفى مصر كانت المعابد تستخدم كمخازن لتخزين الفائض من الحبوب الذى يعد بمثابة احتياطى خلال فترات الأزمات الاقتصادية • لذلك فان تكنولوجيا تخزين الطعام كانت من أهم انجازات المدن

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

القـــديمة[١] .

ولقد ظلت المعابد لفترة طويلة تمثل أكثر أشكال التنظيمات تعقيدا وأشدها نفوذاً ، اذ أن الملكيات قد تطورت خلال فترة لاحقة . وهنا يتعين علينا الاشارة الى الدور الذى كان يلعبه المحاربون ــ الحكام خلال فترات التهديد الخارجي على وجه الخصوص . فلقد أوضح كريل Creel أن المحاربين كانوا يمثلون فى الصين القديمة الحماية الحقيقية للفلاحين من أخطار الغزو الخارجى ، وأنهم (أي المحاربين) كانوا يحددون بأنفسهم أنصبتهم من المحاصيل الزراعية[٢] . ومن الطبيعى أن تؤدي الأعمال العسكرية الى ظهور مهن معينة تتصل بصناعة مختلف أنواع الأسلحة المتاحة خلال تلك الفترة . وما لبثت جماعات المحاربين أن شكلت نظاماً ملكياً يستند الى ولاء وراثى دائم . وهكذا نجد الاهتمام يتحول من المعبد الى القصر ، ثم تظهر بعد ذلك تفاوتات اقتصادية واجتماعية واضحة بين أفراد المجتمع . وتشـــير بعض سجلات ملكية الأراضى فى الحضارات الزراعية القديمة الى وجود تفاوت كبير فى ملكية الأراضى الزراعية الخصبة . فمن خـــلال التوريث الاقتصادى بدأت تتكون جماعات اقتصادية تتمتع بمزايا لا تتمتع بهـــا الجماعات الأخرى . كذلك أكدت بعض الحفريات أن هـــذه الحضارات القديمة قد شهدت طبقات اجتماعية متباينة تعبر عنها بوضوح مظاهر الثراء أو الفقر فى بناء المقابر ومحتوياتها[٣] . فمقابر العائلة المالكة تضم أدوات

---

(١) تجدر الاشارة هنا الى قصة يوسف عليه السـلام الـذى اصبح مستشارا لفرعون مصر بعد ان تنبأ بحلول سبع سنوات من المحصول الوفير تليها سبع أخرى يسودها القحط والمجاعة . واذا كانت هذه القصـة تعكس مدى تحكم المصريين ــ الـذين كانوا اكثر تقـدما واستقرارا ــ فى مواقف الأزمات . والواقع أن التخطيط البعيد المدى فى مختلف المجالات ــ ابتداء من تفادى المجاعات حتى بناء الأهرامات ــ كان احد السمات المميزة للحضـــارة الفرعونية .

(2) H. G. Creel; The Birth of China; Reynal and Hitchcock; New York; 1937; p. 279.

(3) Fustel de Coulanges; The Ancient City; Doubleday; Garden City; New York; 1956; p. 133.

وأسلحة من الذهب والمعادن الثمينة ، بينما لا تضم مقابر عامة الشعب سوى بعض الأوانى النحاسية أو الفخارية • وربما اعتبرنا أهرامات الجيزة مثالا واضحاً على المبالغة فى التعبير عن المكانة الاجتماعية حتى بعد الموت •

ويبدو أن التطور التكنولوجى قد بات أمراً ضرورياً بعد تشكل النظام السياسى الملكى • اذ أن الحفاظ على هذا النظام قد تطلب تطوير صناعة الدروع والأسلحة والمركبات الحربية ، كما أن العائلات الحاكمة ذاتها قد أصبحت بحاجة الى استخدام الكماليات للتعبير عن مكاناتها المتميزة • ومن نتائج ذلك ظهور طوائف من الحرفيين والصناع المتفرغين ودخول بعض السلع الجديدة الى المجال التجارى • والواقع أن هذه الحضارات الزراعية القديمة خلال فترات نضجها وازدهارها كانت تعبر عن بدايات ظهور نظام سياسى محدد المعالم • فالى جانب الملك والحاشية، هناك المحاربون والصناع والمهندسون القادرون على اعداد تصميمات المشروعات الكبرى كالأهرامات • ومن الطبيعى أن يستند هذا التدرج الاجتماعى الواضح الى الفائض الزراعى الذى كان يحققه الفلاحون والأقنان والعبيد •

ومع أن المدينة القديمة لم تكن تتجاوز فى حجمها قرية كبيرة معاصرة ، الا أنها (أى المدينة) كانت تشكل نقطة انقطاع تاريخى • لقد كانت هذه المدينة تشكل نسقاً اجتماعياً جديداً لم تكن الحضارة الانسانية قد ألفته من قبل • بعبارة أخرى كانت المدينة تشكل « ثورة اجتماعية » أدت الى ظهور نظم اجتماعية جديدة • وعلى النقيض من « الثورة الزراعية » التى شهدتها الحضارة الانسانية من قبل ، نجد هذه « الثورة الحضرية » الجديدة تتجاوز حدود الاعاشة والكفاف لتفرز معالم «عملية اجتماعية» فيها استطاع الانسان التفاعل مع البيئة بقدر كبير من النجاح[1] • ومن النتائج الواضحة لهذه « الثورة الحضرية » التحكم الواضح فى البيئة الطبيعية •

---

(1) Lewis Mumford; The City in History; Its Transformation and Its Prospects; Harcout ; Brace; and World; New York; 1961; p. 55.

وهكذا نجد أن الاختراعات لم تعد هى العامل الحاسم فى ظهور التجمعات الانسانية الكبيرة بقدر ما أصبحت الأخيرة (التجمعات) المجال الخصب لظهور الأولى (الاختراعات) • ويمكننا أن نستشهد على ذلك بظهور الكتابة ، وتطور فن المحاسبة ، والتوصل الى التقويم الشمسى ، وتكون التنظيمات البيروقراطية ، وبداية استخدام العلم فى المجالات التطبيقية[1] • واذا كان ذلك يعبر عن شىء ، فانه يعبر عن بداية الدور الذى لعبته المدينة فى حياة الانسان •

ومن الواضح أن العوامل البيئية قد لعبت دوراً حاسماً فى ظهور ونمو المدن القديمة • لذلك فان تاريخ المدينة ما هو الا سجل لمحاولات الانسان من أجل السيطرة على العوامل البيئية من خلال استخدام التكنولوجيا وارساء معالم التنظيم الاجتماعى • واذا كان بعض الدارسين قد اعتبروا أثينا من أكثر مدن العالم القديم تحضراً خلال فترة ما قبل الميلاد ، الا أنها (أى أثينا) قد اضطرت للتطلع الى البحر • ولم يكن السبب فى ذلك فقط التربة الصخرية الجدبة المحيطة بالمدينة ، بل أيضاً الظهير الجبلى لها ، والذى خلق بالتالى مشكلات عديدة فيما يتعلق بالنقل والمواصلات • وبغض النظر عن بعض الطرق القليلة التى عبدها الاغريق على مدى فترة زمنية طويلة ، فان شوارع أثينا فى ذلك الحين لم تكن تعدو ممرات لا تتسع لأكثر من مرور الحيوانات والحمالين • ولقد قدر جلوتزا Glotz تكاليف نقل السلع لمسافة عشرة أميال بعيداً عن أثينا بحوالى ٤٠٪ من قيمة هذه السلع المنقولة[2] • ومن نتائج ذلك تحول اليونان الى البحر خاصة وأنها تتمتع بعدة موانى هامة • فعلى سبيل المثال كانت السفينة الاغريقية تحمل أكثر من ٧٠٠٠ رطلاً من الحبوب لمسافة

---

(1) Kingsley Davis; op. cit; p. 430.

(2) Gustave Glotz; Ancient Greece at Work; Norton; New York; 1967; pp. 291-293.

٦٥ ميلا بحرياً فى اليوم ، بحيث لم تكن تكاليف النقل البحرى تزيد عن عشر تكاليف النقل البرى[1] .

والواقـــع أن أعظم انجازات الاغريق لم تكن فى مجال التكنولوجيا بقدر ما كانت فى مجال التنظيم الاجتماعى . وهنا يتعين علينا الاشارة الى « ابتكار اجتماعى » هـــو : المـــدينة polis ، أو ان شئنا الدقة « دولـــة المدينة » city state التى كانت تضم جماعات من الأسر والعشـــائر والقبائل تربطهم علاقات وثيقة أساسها المساعدة المتبادلة والانتماء لدولة واحدة . ولاشك أن الاشتراك فى معتقدات دينية واحدة كان من العوامل الهامـــة التى أسهمت فى توحيد هذه الوحدات الاجتماعية . لذلك نجـــد تلازماً قوياً بين الانتماء للدولة والحق فى ممارسة الشعائر الدينية . وكان باستطاعة المواطن الاثينى تتبع نسبه الى أن يصل الى الاله أو الآلهة التى تتحكم فى القضايا الأساسية ، وبالتالى يشارك فى النشاطات الدينية العامة. ومعنى ذلك أن المدينة القديمة كانت فى نهاية الأمـــر مجتمعاً دينياً ، وأن المواطنة كانت تتحدد فى ضوء أسس واعتبارات دينية[2] . والواقـــع أن الاغريق قد ظلوا حريصين على عدم توسيع نطاق المواطنة حتى لا تتعـــدى نطاق « دولة المدينة » ، لأنهم قد اعتقدوا أن ذلك قد يؤثر على تماســـك الدولة ووحدتها . لذلك نجـــد الرومان ــ على نحو ما سنرى بعد قليل ــ يوسعون من نطاق دولتهم فى محاولة لاقامة امبراطورية شاسعة المســـاحة قوية النفـــوذ .

والملاحظ أن المدن الاغريقية كانت تتشابه الى حد كبير فى مظاهرها الطبيعية وذلك بسبب ارتباط هذه المدن بأغراض الدفـــاع والحماية . اذ كانت أسوار المدينة تقـــام حـــول جبـــل محصن يطلق عليه « أكروبول »

---

(1) Ibid; p. 300.

(2) Fustel de Coulanges; The Ancient City; op. cit; p. 134.

وقد يفسر لنا ذلك العقاب الذى ناله سقراط بسبب تشككه فى وجـــود الآلهة والذى حرص على تجنبه بتناول السم .

acropolis . أما المعابد الأساسية فكانت تقام فوق « الأكروبول » . وعلى مقربة من المعابد يوجد ميدان واسع يطلق عليه « الأجورا » agora وهي يلتقي الناس كما يستخدم في بعض الأحيان كسوق عام . وتقع معظم المباني العامة الرئيسية داخل أسوار المدينة ، بينما تقع مساكن معظم الناس - باستثناء مساكن الأغنياء - خارج تلك الأسوار . والواقع أن مدينة أثينا لم تكن تتبع خطة حضرية واضحة . فاذا ما انتقل المرء من منطقة المعابد لا يجد سوى مجموعة من الشوارع الضيقة الملتوية القذرة . وعلى الرغم من أن أثينا كانت عاصمة لامبراطورية ، الا أنها لم تنمو وفقا لضرورات واضحة ، ولم تحظ الا بالقدر الضئيل من التخطيط الحضري . أما فيما يتعلق بالسكان نجد أثينا تعاني مشكلات حادة مصدرها الزيادة السكانية الحادة الناجمة عن هجرة الفلاحين من المناطق الريفية اليها بسبب ضعف انتاج الأراضي الزراعية . ولقد تراوح عدد سكان أثينا في قمة ازدهارها فيما بين ١٢٠٫٠٠٠ و ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة . ويبدو أن انخفاض مستوى التكنولوجيا في ذلك الوقت كان أحد العوامل التي حالت دون ارتفاع عدد سكان المدينة عن هذا الحد . اذ أن أثينا كانت مانزال تعتمد اعتمادا أساسيا على الفائض الاقتصادي الذي تحققه الأرض الزراعية . ولقد عبر ماكس فيبر Weber عن ذلك بقوله « ان المدن الاغريقية القديمة لم تكن بأكثر من مراكز حضرية شبه ريفية »[1] .

ويبدو أن الاغريق كانوا يفضلون المدن الصغيرة الحجم . ويتضح ذلك من خلال الشواهد التاريخية المتاحة التي تتناول فترة ما قبل الميلاد من ناحية ، والأفكار والآراء التي عبر عنها الفلاسفة الاغريق من ناحية أخرى . فلقد عبر أفلاطون وأرسطو عن تفضيلهما للمدن الصغيرة الحجم مما يتيح فرصا أفضل للادارة السياسية الناجحة . ولقد وصل أفلاطون الى حد تقدير حجم سكان المدينة المثالية ، ذاهبا الى أنها (أي المدينة) يجب

---

(1) Max Weber; The City (trans. D. Martindale and G. Neuwirth); Free Press; New York; 1958; p. 71.

ألا تضم أكثر من ٥٠٤٠ مواطناً • واذا ما أضفنا غير المواطنين كالنساء والاطفال والعبيد والأجانب وصل هذا العدد الى ٦٠٫٠٠٠ نسمة[1] • وعلى الرغم من أن أرسطو كان أقل وضوحاً فيما يتعلق « بالحجم المثالى » للمدينة ، الا أنه قد أكد أن زيادة عدد سكان المدينة فوق حد معين قد يؤدى الى تغيير طابعها وخصائصها المميزة • ومع ذلك يذهب أرسطو الى أن حجم المدينة يجب أن يصل الى حد معين حتى تستطيع الدفاع عن نفسها وتحقيق الاكتفاء الذاتى ، بشرط ألا يؤدى ذلك الى عدم قدرة الأفراد على تمييز بعضهم البعض[2] • ولاشك أن الاعتبارات السياسية قد لعبت دوراً هاماً فى الحد من نمو المدن الاغريقية خلال تلك الفترة ، خاصة اذا ما أخذنا فى الاعتبار اهتمام السياسة الاغريقية باقامة مستعمرات خارج حدودها • ففيما بين سنتى ٤٧٩ و ٤٣١ قبل الميلاد هاجر من المدن اليونانية المستقرة الى المستعمرات الجديدة أكثر من عشرة آلاف أسرة اغريقية • والواقع أن السياسة الاستعمارية التى تبناها الاغريق كانت تهدف الى مواجهة الاحتياجات المتزايدة للامبراطورية ككل ، وحل المشكلة السكانية اليونانية التى كانت قد استفحلت الى حد كبير • ومن الطبيعى أن يؤدى انتشار الاغريق فى مناطق واسعة الى تغلغل ثقافتهم فى مختلف أرجاء العالم القديم •

واذا ما انتقلنا الى الحضارة الرومانية وجدنا المدينة تكتسب مزيداً من النمو والتفرد والاستقلال • والواقع أن طابع المدينة الذى تشكل خلال فترات حكم القياصرة الرومانيين قد ظل مسيطراً على معظم المجتمعات الأوربية حتى بدايات القرن التاسع عشر • فلقد بلغ عدد سكان روما فى عصرها البطولى أكثر من مليون نسمة ، على الرغم من أن بعض الدارسين قد يهبط بهذا الرقم الى النصف • ويعود هذا التفاوت فى التقدير الى قلة

---

(1) Plato; The laws; Book V; 437 (trans. B. Jowett); 1962 ed.

(2) Aristotle; Politics; Book VII; IV 7-8 (trans. B. Jowett); 1932. ed.

البيانات السكانية الصادقة • فعلى سبيل المثال نجد عدد سكان روما ــ طبقا للتعدادات الرومانية ــ يرتفع من ٩٠٠ر٠٠٠ نسمة فى سنة ٦٩ قبل الميلاد ليصل الى أربعة ملايين فى سنة ٢٨ قبل الميلاد • وليس هناك تفسير واضح ومقنع لهذه القفزة السكانية الهائلة ، وان كان بعض الباحثين يذهبون الى أن ذلك قد يعود الى ادخال النساء والأطفال ضمن التعدادات السكانية[١] • لذلك يتعين علينا الاشارة هنا الى أن معظم البيانات المتعلقة بأعداد سكان المدن فيما قبل القرن التاسع عشر هى بيانات تقريبية لا تستند الى تعدادات سكانية دقيقة •

ومن خلال تطور بعض مجالات التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعى ، تمكن الرومان من السيطرة على الامبراطورية التى كانت تضم عدة مدن يصل عدد سكان كل منها الى أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة • ولقد أوضح ادوارد جيبونز Gibbons أن عدد سكان الامبراطورية الرومانية قد وصل خلال فترة حكم الامبراطور كلوديوس Claudius (فيما بين سنتى ٤١ و ٥٤ بعد الميلاد) الى أكثر من عشرين مليوناً ، وأن هذا الرقم قد يصل الى خمسة أضعافه اذا أضيف اليه عدد النساء والأطفال والعبيد ، بينما لم يكن عدد سكان العالم يزيد فى ذلك الوقت عن ٢٥٠ مليونا[٢] • وفضلا عن ذلك يذهب جيبونز الى أن ايطاليا القديمة كانت تضم أكثر من ١١٩٧ مدينة ، وأن اسبانيا قبل الميلاد كانت تضم حوالى ٣٦٠ مدينة • أما شمال افريقيا فقد شهد مئات المدن ، كما ظهرت مدن ضخمة فى منطقة شمال جبال الألب ابتداء من فينا حتى بوردو • ويمكننا الاشارة أيضاً الى بعض المدن البريطانية القديمة مثل يورك وباث ولندن[٣] • ولاشك أن الانجازات التكنولوجية والاجتماعية التى حققها الرومان قد أسهمت فى

---

(1) William Petersen; Population; Macmillan; New York; 1969; p. 369.

(2) Edward Gibbon; The Decline and Fall of the Roman Empire; Dell; New York; 1952.

(3) Ibid; pp. 24-55.

ظهور المدن في مختلف أنحاء العالم القديم ، فضلا عن انتشار الثقافة الرومانية وعلى الأخص في مجال التشريع والإدارة وتخطيطها في المستعمرات التي وصلت حداً بعيداً من الاتساع والانتشار .

والواقع أن مدينة روما ـ شأنها شأن أثينا ـ لم تكن تتبع خطة حضرية واضحة المعالم . فعلى الرغم من روعة بعض المباني ، الا أن الاهتمام بتطوير الأحياء المختلفة ـ وعلى الأخص تلك التي يقطنها الفقراء ـ كان ضعيفاً للغاية . فما أن يغادر المرء بوابات المدينة حتى يجد نفسه وسط شوارع ضيقة تخترق المناطق التي يعيش فيها العامة . واذا كان الرومان قد أقاموا ميادين عامة ضخمة وشقوا كثيرا من الطرق بفضل الضرائب التي كانوا يفرضونها على السكان ، الا أن الجماهير الفقيرة لم تكن تتمتع بحق الوقوف في هذه الميادين أو المرور في تلك الطرق . وبنمو مدينة روما نقلت الأسوار القديمة الى مكان أبعد لكي تضم المناطق السكنية الجديدة[1] . ومما يجدر ملاحظته أن بعض المدن التي حكمها الرومان كباريس وفينا ولندن كانت تتبع خطة حضرية أكثر تطورا من تلك التي عرفتها روما . اذ أن هذه المدن قد ظهرت في البداية كمعسكرات حربية دائمة يغلب عليها الطابع الروماني ، لكنها استطاعت ـ برغم ذلك ـ النهوض بمقوماتها الحضرية بشكل أسرع اذا ما قورنت بروما . واذا كانت روما قد صدرت للعالم ثقافتها (في مجالات القانون والحكم والهندسة)، الا أنها قد اعتمدت عليه في الحصول على السلع الأساسية ابتداء من المواد الغذائية حتى العبيد والأقنان . لقد استطاعت روما في بعض الفترات تحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي في مجال الطعام ، لكن المشروعات الهائلة التي كانت تقام قد اقتضت استيراد مزيد من المواد الغذائية لاطعام الأعداد الهائلة من العمال الذين كانوا يعملون في هذه المشروعات . وبفضل

---

(1) Eric Lampard; «Historical Aspects of Urbanization»; in Philip Hauser; Leo Schnore; The Study of Urbanization; John Wiley and Son; New York; 1965; pp. 519 ff.

السيطرة الرومانية أصبحت روما تحصل على الطعام من شبه جزيرة أيبيريا وشمال أفريقيا حتى تحول البحر المتوسط الى « بحيرة رومانية »[1]. على أن هذه الظروف لم تستمر بعد ذلك طويلا ، اذ سرعان ما ظهرت علامات الانهيار واضحة على الامبراطورية الرومانية بسبب الغارات العديدة التى شنها الفانداليون والبرابرة ، حتى تقطعت فى النهاية أوصالها وبدت وكأنها جسم ضخم ينوء بحمله باقين ضعيفين . وخلال عصور الظلام لم تكن روما بأكثر من قرية متواضعة تعيش على ذكريات مدينة عظيمة .

والواقع أن سقوط الامبراطورية الرومانية خلال القرن الخامس الميلادى يشكل علامة بارزة فى تاريخ المدن الغربية بوجه عام . اذ ظلت هذه المدن طوال القرون الست التالية محافظة على كثير من خصائص الحقبة الرومانية . ولست هنا بصدد التأريخ لأسباب سقوط هذه الامبراطورية ، لكن ما يعنينا هنا هو أن مدنها قد تدهورت بشكل كبير بسبب غزوات البرابرة عليها وتقلص التجارة الى حد كبير . ان روما نفسها خلال تلك الفترة من الانحلال قد تحللت حتى وصل عدد سكانها الى ٢٠٫٠٠٠ نسمة فقط . ولا نستطيع أن نغفل هنا الاشارة الى ظهور الاسلام واتساع نطاق فتوحاته ، مما أضعف من خطوط التجارة مع أوربا بوجه عام . ولهذه الأسباب جميعها شهدت المدن الأوربية كساداً تجارياً وتقلصاً سكانيا وضعفا سياسيا ، تعبر عنها جميعا فترة « الظلام الأوربى » . ومن النتائج التى ترتبت على انهيار الامبراطورية الرومانية ظهور وحدات سياسية منعزلة عن بعضها البعض تحاول باستماتة تحقيق الاكتفاء الذاتى من أجل الاستمرار فى البقاء . أما حكام هذه الوحدات فكانوا يضمنون للفلاحين الحماية من غارات الغزاة فى مقابل خضوعهم لنظام القنانة . وبسبب العزلة السياسية أخذت هذه الوحدات بمبدأ الحكم الوراثى ،

---

(1) John Palen; The Urban World; McGraw - Hill Book Company; New York 1975; Ch. I; Lewis Mumford; op. cit.

وشهدت بذلك معالم بناء طبقى يتصف بأقصى درجات الجمود ، حيث كان يشغل أفراد الجماعة الحاكمة قمة هذا البنـاء بينمـا يشـغل الأقنـان قاعة[١] • واذا كانت المدينة خلال الحقبة الرومانية قد لعبت دوراً هاماً ، فاننا نجد القرية أو الزراعة عموماً تشكل دعائم النظام الاقطاعى الـذى شهدته المجتمعات الأوربية خلال الفترة اللاحقة • ولم تكن المدينة مركزا للاقطاع ، اذ أن العلاقات الاقطاعية كانت تتحدد داخل القلاع التى يسكنها الاقطاعيون • أما الاقتصاد فكان يعتمد على زراعة الكفاف ، فضلا عن صعوبة نقل ما قد يفيض من الطعام من مكان لآخر[٢] • وهناك عوامـل عديدة تفسر لنا سبب انغلاق النظام الاقطاعى خلال تلك الفترة • من ذلك صعوبة الاتصال بين الجماعات المختلفة ، وعدم وجود عملات نقدية مقبولة من الجميع ، فضلا عن نظام حيازة الأرض الذى كان يكبل الاقنان بالأرض تكبيلا •

بيد أن المدن الأوربية قد بدأت فى الانتعاش التدريجى ابتداء مـن القرن الحادى عشر ، حتى أن بيرن Pirenne قد أشار الى أن كثيراً من المدن التى ظهرت خلال تلك الفترة لم تكن امتداداً أو استمرارا للمـدن القديمة ، بقدر ما كانت كيانات اجتماعية جديدة[٣] • لقد نشأت هذه المدن الجديدة من خلال النمو الذى طرأ على التجارة الخارجية مما أدى الى مزيد من التجمع السكانى • وكان من الطبيعى ان تكون معظم هذه المدن ساحلية الموقع حيث اتخذت شكل مراكز لاستقبال وتصدير السلع ، فضلا عن خدمة السفن التى تجـوب أعالى البحار[٤] • وبمرور الوقت تحولت

---

(1) Henri Pirenne; Medieval Cities; Princeton University Press; Princeton; N. J.; 1939; pp. 84-82.

(2) Karl Polanyi etal: Trade and Market in the Early Empires : Economics in History and Theory (Glencoe; III; 1927).

(3) Henri Pirenne; op. cit; p. 76.

(4) Howard Saalman; Medieval Cities; Brailler; New York; 1968, p. 15.

التجارة الموسمية الى تجارة منتظمة على مدى العام ، مما دفع التجار للإستقرار خارج نطاق أسوار المدن واقامة أسواق خاصة أخرى لحماية بضائعهم وسلعهم • وما أن حل القرن الثالث عشر حتى أصبحت هذه الامتدادات العمرانية جزءاً من المدن القديمة • وهناك عاملان خارجيان هامان أسهما فى نمو المدن الأوربية خلال العصور الوسطى : الأول هو الحروب الصليبية ، والثانى هو الزيادة الهائلة فى عدد السكان بوجه عام • لقد أسهم الصليبيون فى تنمية التجارة بعد ما عادوا من الامبراطورية البيزنطية الأكثر تحضراً حاملين معهم أحدث ما توصل اليه الشرق من سلع وتكنولوجيا • وعلى الرغم من هجمات قطاع الطرق وارتفاع نسبة الضرائب المفروضة على السلع المستوردة ، الا أن التجارة الأوربية قد حققت ازدهاراً كبيراً انعكست نتائجه المباشرة على المدن وعلى الأخص الساحلية منها •على أن اتجاه المجتمعات الأوربية نحو الاستقرار قد أدى بعد ذلك الى زيادة الانتاج الزراعى وانخفاض معدلات الوفيات ، مما أسهم فى ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية للسكان • ويمكننا أن نضيف إلى ذلك بعض التجديدات التكنولوجية التى ساعدت على رفع معدلات الانتاج الزراعى سواء باستخدام أدوات انتاجية أكثر تطوراً أو باستغلال الأرض الزراعة استغلالا أفضل بزراعتها على مدار العام • وقد نستشهد على ذلك بما حدث فى انجلترا • فخلال فترة حكم وليم الفاتح كان عدد السكان لا يزيد عن ١٫٨ مليون نسمة ، ثم ازداد بعد ثلاثة قرون ليصل الى ٢٫٧ مليون نسمة • ومن الطبيعى أن تتجه نسبة ملحوظة من هذه الزيادة الى المدن التى بدأت فى الازدهار بعد ذلك •

وبرغم كل ما سبق فلقد كانت مدن العصور الوسطى الأوربية صغيرة الحجم ، اذ لم يكن يتعدى عدد سكان أكبرها عدد سكان مدينة صغيرة معاصرة • بل ان عدد سكان معظم المدن الأوربية خلال عصر النهضة كان يتراوح فيما بين ١٠٫٠٠٠ و ٣٠٫٠٠٠ نسمة[1] • وربما استثنينا من ذلك

(1) Frederick Hiorns; Town Building in History; Harrap; London; 1956; p. 110.

باريس وفلورنسا والبندقية وميلانو التى وصل عدد سكان كل منها الى ١٠٠ر٠٠٠ نسمة[١] . وكانت هذه المدن معبرة تماماً عن الطابع الحضرى المميز للعصور الوسطى : فهى محاطة بأسوار كثيفة تعلوها أبراج المراقبة والحراسة . أما النمط الايكولوجى الداخلى لهذه المدن فيبدو انعكاسا لوظيفتها الدينية الأساسية ودورها الدفاعى . وخارج أسوار المدن كانت تخصص مساحات لمواجهة احتمالات النمو العمرانى وزيادة عدد السكان[٢] . أما فيما يتعلق بالبناء الطبقى الحضرى فاننا نجد هذه المدن الوسيطة تضم جماعات جديدة من الصناع والنساجين والصيارفة الذين شكلوا فيما بعد نواة « البرجوازية الأوربية » . وما لبثت هذه الجماعات أن كونت طوائف حرفية متخصصة فى انتاج وتصنيع سلع معينة ، بحيث أصبحت المهارة الفنية — لا الملكية الزراعية — مصدراً أساسيا من مصادر القوة الاجتماعية فى هذه المدن . والواقع أن ظهور البرجوازية خلال العصور الوسطى قد أسهم فى اضعاف النظام الاقطاعى وبزوغ معالم بناء اجتماعى جديد . وربما عبر عن ذلك كله التعبير الألمانى القائل « بأن هواء المدينة قادر على تحرير الانسان »[٣] . ولقد أوضح ماكس فيبر Weber أن أوربا قد بدأت تشهد منذ القرن الثالث عشر معالم مجتمعات محلية حضرية متميزة تعتمد اعتماداً أساسياً على التجارة وتتمتع بقدر ملحوظ من الاستقلال الذاتى[٤] . ويبدو أن ما شهدته المدن الأوربية خلال تلك الفترة من استقلال سياسى قد ساعد بعد ذلك على بلورة ملامحها الحضرية التى ظلت قائمة لفترة طويلة .

---

(1) Henri Pirenne; Economic and Social History of Medieval Europe; Harcourt; New York; 1936; p. 173.

(2) Rose Hum Lee; The City; Lippincott; Chicago; 1955; p. 27.

(٣) ويشير هذا التعبير الى الحرية التى بدأ الاقنان يتمتعون بها بانهيار النظام الاقطاعى وهجرتهم الى المدينة التى كانت تأخذ بمبدأ العمل المأجور . انظر :

Lewis Mumford; The Natural History of Urbanization; Man's Role in Changing the Face of the Earth; Chicago; 1956; pp. 382-398.

(4) Max Weber; The City; op. cit.

ومع ان بعض المدن الأوربية خلال العصور الوسطى كانت تميل الى التخصص فى حرفة معينة أو انتاج سلعة بعينها ، الا أن الغالبية العظمى من هذه المدن قد اكتسبت قوتها الاقتصادية من خلال ممارستها للوظائف التجارية والمالية • ومن بين المدن التى نمت وازدهرت من خلال التجارة : ميلانو ومرسيليا فى منطقة البحر المتوسط ؛ وبريمين وهامبورج وكولونيا فى الشمال[١] • وفى نهاية العصور الوسطى بدأت بعض العائلات تحتكر كثيراً من النشاطات الاقتصادية والسياسية فى المراكز الحضرية الهامة • وبحلول القرن الرابع عشر بدأت المدن الأوربية التجارية تسهم بشكل مباشر وقوى فى تحويل أوربا من نظام اقطاعى زراعى عتيق الى بناء حضرى مستند الى التجارة وتحقيق الربح • وما لبثت الموانى الايطالية أن انتعشت مرة أخرى باسطة نفوذها على المناطق الريفية المجاورة • أما المنافسة بين المدن الايطالية فلقد حسمتها الحروب التى لم تعرف هواده • وهكذا استطاعت فلورنسا قهر المناطق المجاورة المناوئة واستيعاب مناطق أخرى واخضاعها لسيطرتها الاقتصادية • ولقد أشار بعض الباحثين الى أن روان كانت مركزا اقتصاديا لأكثر من خمسة وثلاثين قرية ، وأن مينز كانت تسيطر على ١٦٨ قرية مجاورة[٢] • وبرغم الأوبئة العديدة التى أصابت المدن الأوربية ، الا أن ذلك لم يؤثر على نمو سكان هذه المدن على الأقل فى المدى البعيد • ولقد أشار وليم لانجر Langer الى أن مرض الطاعون قد انتشر فى المدن الاوربية فيما بين سنتى ١٣٤٨ و ١٣٥٠ ، مما أدى الى فناء أكثر من ربع سكان أوربا[٣] • وربما شجع ذلك بعض

---

(1) Bert Hoselitz; «The Role of Cities in the Economic Growth of the Underdeveloped Countries» in Gerald Breese; ed; the City in Newly Developing Countries; Princeton University; 1972; pp. 232-245.

(2) John Mundy and Peter Reisenberg; The Medieval Town; Van Nostrand; New York; 1958; p. 35.

(3) William Langer; «The Black Death» in Scientific American's Cities; Their Origin; Growth and Human Impact; W. H. Freeman; San Francisco; 1973; p. 106.

المؤرخين على القول بأن هذا الوباء كان أعظم كارثة شهدها الجنس البشرى منذ بداية تاريخه • وقبل حلول عام ١٤٠٠ كان الطاعون سببا فى وفاة أكثر من ثلث سكان القارة الاوربية • ولقد وصلت الكارثة الى حد فناء أكثر من نصف سكان بعض المدن ، بينما وصلت هذه النسبة الى النصف فى مدن أخرى • وطبقا لبعض التقديرات انخفض عدد سكان فلورنسا من ٩٠٫٠٠٠ نسمة الى ٤٥٫٠٠٠ نسمة ، كما فقدت هامبورج حوالى ثلثى عدد سكانها بسبب هذا الوباء • واذا كان تأثير الطاعون على المدن قد اتسم بالعنف والقسوة ، فانه بالنسبة للمناطق الريفية كان قدرا محتما • لقد انهار تماما البناء الاجتماعى الريفى • أما الذين نجوا من هذا الوباء فقد اضطروا للهجرة الى المدن حتى أن الاقطاعيات قد بدت خاوية على عروشها لا تجد من يفلحها • وهكذا بدت المدن الأوربية خلال تلك الفترة وكأنها « مدن أشباح » • واذا كانت هذه المدن قد ظلت تتعرض من فترة لأخرى لوباء الطاعون حتى أواخر القرن السابع عشر ، الا أن زيادة سكانية ملحوظة قد طرأت عليها منذ بداية القرن الخامس عشر • واذا ما أردنا تلخيصا لهذا الموقف قلنا : إنه اذا كان الطاعون قد أباد السكان ، فانه قد أباد أيضا النظام الاقطاعى الأوربى ووضع له مصيره المحتم • ومنذ ذلك الحين بدأت الحضارة الغربية تكتسب خصائص جديدة لعل أهمها وأبرزها المدينة الاوربية بكل ما يتضمنه هذا التعبير من معان •

وخلال القرن السادس عشر شهدت المدن الأوربية بعامة والايطالية بخاصة ظهور طبقة غنية من النبلاء الذين أسهموا بحكم ثرائهم ونفوذهم فى النهوض بمقومات الحياة الحضرية • وكنتيجة لذلك بدأت بعض مدن النهضة الأوربية كفلورنسا تهتم بالتخطيط الحضرى على الأخص فى مجال المبانى العامة • والواقع أن الملامح الكلاسيكية للهندسة المعمارية الأوربية قد تشكلت خلال تلك الفترة سواء بالنسبة للمبانى العامة أو المساكن الخاصة • ولسنا بحاجة الى ابراز الدور الكبير الذى لعبه الفنانون الموهوبون من أمثال مايكل أنجلو Michelangelo وليوناردو دافينشى Leonardo de vinci فى تجميل المدن الأوربية والنهوض بها • فعلى سبيل المثال نجد دافينشى

يقدم اقتراحات عديدة للتخطيط الحضرى • ومن أبرز معالم هذا التخطيط الحرص على شق الشوارع المستقيمة الطويلة واقامة الميادين الواسعة[1] • واذا كان لنا أن نرمز الى النهضة الحضرية التى شهدتها أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، قلنا انها قد جاءت انعكاسا لايديولوجية انسانية تميل الى تأكيد الثقافة الحضرية •

ولا نستطيع أن نغفل الاشارة الى بعض الاعتبارات السياسية التى أسهمت فى تدعيم النمو الحضرى خلال تلك الفترة • ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال أن المدينة قد بدأت تفرض سيطرتها الاقتصادية والثقافية على المناطق الريفية ، لكنها (أى المدينة) قد بدأت تفقد مكانتها كوحدة سياسية مستقلة الى حد ما بسبب ظهور النزعات القومية وبزوغ الدولة بمعناها الحديث • وفى أواخر العصور الوسطى ازدادت الصلة وثوقا بين الملوك وسكان المدن ، ذلك أن الملوك كانوا يرغبون فى تقليص سلطات النبلاء المحليين الذين كانوا مايزالون يمارسون تأثيراً سياسياً كبيراً • ولقد نجح الملوك فى كسب تأييد الشعوب بسبب الرغبة العارمة فى القضاء على النظام الاقطاعى ، مما شجعهم على خوض حروب لا نهاية لها ضد هؤلاء النبلاء • وما أن أحرز هؤلاء الملوك انتصاراتهم على النبلاء حتى تحولوا الى المدن القوية النفوذ لاخضاعها وضمها الى الدول الوليدة • وهكذا نجد البناء الاجتماعى فى أوربا يتسع نطاقاً ويزداد نفوذا ممهدا بذلك لظهور « الدولة القومية » nation - state • واذا كانت المدن القديمة قد فقدت استقلالها السياسى ، الا أنها فى ظل الدول القومية الحديثة قد حققت مكاسب اقتصادية تفوق تلك التى كانت تحققها خلال الحقبة الاقطاعية • ومن الطبيعى أن تعمل الحكومات القومية الجديدة على تأمين الطرق ، وتيسير نقل البضائع ، وتوسيع نطاق السوق بوجه عام ، وتوحيد العملات

---

(1) Oscar Handlin and John Burchard (eds.); The Historian and the city: Cambridge; Mass: 1963; p. 11.

النقدية ، ووضع معايير جديدة للأوزان والأحجام وكل ما يمكن أن يسهم فى تدعيم السياسة القومية وتوحيد الجماعات المختلفة[١] .

ولنا أن نتوقع تغير طابع مدن العصور الوسطى بظهور الاكتشافات التكنولوجية وعلى الأخص البارود والمدافع . اذ بدأت أسوار هذه المدن تفقد وظيفتها وعلة وجودها . كما أن الأساليب الدفاعية التقليدية (كالمتاريس والحصون والخنادق) لم تعد قادرة على رد المغيرين على أعقابهم . لقد كان على المدن التي تطمح فى صد جيوش الملوك أن تحول اهتمامها من الهندسة المعمارية الداخلية والتخطيط الحضرى الى هندسة التحصين والدفاع والهجوم . وبرغم ذلك فان عدداً قليلا من التحصينات هو الذى استطاع الصمود أمام نيران المدافع . وباختصار لقد حل المدفع محل الخندق[٢] ، وبات من المحتم اعادة النظر فى الخطط الحضرية حتى تتلاءم مع الظروف السياسية الجديدة . واذا كان لنا أن نثير الشك فى وجهة نظر لويس ممفورد Mumford الذاهبة الى أن انهيار المدينة قد بدأ مع نهاية العصور الوسطى[٣] ، فان المؤكد أن مدينة القرن السابع عشر كانت تتجه نحو التدهور والانهيار . فبسبب عدم قدرة المدن على الاتساع المكانى الأفقى خارج أسوارها ، كان من المحتم أن يظهر الاتساع الرأسى بشغل كل المساحات التى تحيط بها هذه الأسوار بسبب زيادة الهجرة الريفية ــ الحضرية التى كانت نتيجة طبيعية للنمو الاقتصادى الذى بدأ يتحقق آنئذ . ولا نريد الخوض هنا فى تفاصيل الظروف الطبيعية القياسية (كالسكن والاضاءة والتهوية ... الخ) التى كانت تعيش فى ظلها

---

(1) Wilbur R. Thompson; Urban Economic Growth and Development in a National System of cities; in Philip Hauser and Leo Schnore; (ed) op. cit; pp. 431 - 490

(٢) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٣ .

(3) Lewis Mumford; The City in History; op. cit.

الجماعات الفقيرة وما كانت تتعرض له من أوبئة وفناء جماعى[١] • ومن خلال ذلك يمكننا أن نفهم المغزى الذى كانت تشير اليه العبارة الانجليزية : « المدينة هى مقبرة الريفيين » • لقد ظلت هذه العبارة متداولة فى بريطانيا حتى أواخر القرن التاسع عشر • وتشير بعض التقديرات الى أن معدل الوفيات كان يفوق معدل المواليد فى لندن خلال القرن السابع عشر ، وأن الهجرة الكثيفة من الريف الى المدن هى التى أتاحت الفرصة لاستمرار زيادة السكان الحضريين • ولقد أوضح دورثى جورج George أن لندن فى سنة ١٨٩٠ قد شهدت انخفاضاً سكانيا ملحوظاً حتى أن عدد المواليد لم يتجاوز ثلثى عدد الوفيات[٢] •

وعلى أية حال فان النمو الحضرى كان يرتبط عموماً بزيادة السكان بوجه عام • وحتى منتصف القرن السابع عشر لم يكن عدد سكان العالم يزيد بأكثر من ٤ر٠٪ سنويا • وبقدوم القرن الثامن عشر وصل عدد سكان العالم الى ما يقرب من ٥٠٠ مليون نسمة ، أى أنه قد تضاعف مرة واحدة منذ ميلاد المسيح وحتى أواخر القرن السابع عشر • ويصف بعض الدارسين هذه التغيرات السكانية بأنها تعبير عن « تحول ديموجرافى » أو « ثورة ديموجرافية » • لقد طرأت زيادة سكانية مفاجئة خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر • ولم يكن مصدر هذه الزيادة ارتفاع معدلات المواليد فقط ، بل أيضاً انخفاض معدلات الوفيات • وفضلا عن ذلك استمرت هذه الزيادة السكانية فى الارتفاع خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، مما دفع بعض الباحثين الى استخدام مصطلح « التحول

---

(١) قد تعبر عن ذلك — ولكن بطرق مختلفة — كتابات بعض المفكرين والفلاسفة الذين ظهروا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أمثال سنكلير Sinclair صاحب كتاب « وصف احصائى لاسكتلنده » ، وايدن Eden مؤلف كتاب « دولة الفقراء » ، وبوث Booth الذى أجرى دراسة مسحية نشرها تحت عنوان « حياة وعمل سكان لندن » .

(2) Dorothy George; London Life in the Eighteenth Century; Harper Torchbooks; New York; 1964; p. 25.

الديموجرافى » للاشارة الى الانتقال من مرحلة ارتفاع معدلات المواليد (التى كان يقابلها ارتفاع فى معـدلات الوفيات) الى مرحلة انخفاض معدلات الوفيات وصـولا الى مرحلة انخفاض معـدلات المواليد التى تنتهى بتحقيق نوع من التوازن النسبى بين نسب الميلاد ونسب الوفـاة • ويمكننا تفسير انخفاض معدلات الوفيات فى ضوء التطورات التكنولوجية التى طرأت على مجال الزراعة ، والتى ساعدت ــ بالتالى ــ على ارتفاع معدلات انتاج الطعام • وبدون ذلك كان من المستحيل على المدن أن تصمد وتنمو وتزدهر[1] • ان من أكبر العقبات التى واجهتها المدن حتى بداية القرن التاسع عشر انخفاض معدلات الانتاج الزراعى ، وعـدم وجـود فائض من الطعام يكفى السـكان الحضريين • وحتى نستطيع تصور أبعاد هذه القضية يكفى أن نشير الى أنه فى مطلع القرن التاسـع عشر كانت الأسرة الحضرية بحاجة الى الانتاج الزراعى الذى يحققه تسعة مزارعين ، بينمـا يستطيـع المزارع الأمريكى الآن تحقيق انتـاج زراعى يكفـى الاحتياجات الغذائية لأكثر من خمسة وأربعين شخصاً •

ولاشك أن تطور أساليب النقل قد أسهم فى تيسير عملية نقل فائض المحاصيل الزراعية من المناطق الريفية الى المـدن • وربما كان ذلك أحـد أسباب النمو السكانى المفاجىء الذى شهدته مدينة لندن فى مطلع القرن التاسع عشر حيث وصل عدد سـكانها الى أكثر من ٩٠٠ر٠٠٠ نسمـة • ويشكل هذا الرقم حوالى ١١٪ من مجموع السكان فى بريطانيا خلال تلك الفترة • ومن ذلك يبدو واضحاً أنه بدون التطورات التكنولوجية فى مجال الزراعة والنقل كان من المستحيل على المـدن الأوربية أن تحقق نمـواً وازدهاراً خلال القرن التاسع عشر[2] • وهناك عدد من العوامل الاجتماعية والتكنولوجية والفكرية التى لعبت دورا هاما فى زيادة معدلات التحضر فى أوربا خلال القرن التاسع عشر • من ذلك ــ مثلا ــ تحلل النظام الاقطاعى

---

(1) Frederick Hiorns; Town Building in History; op. cit.

(2) Carl Bridenbaugh; Cities in Revolt Knopf; New York; 1955.

فى مواجهة حركة التصنيع التى اتخذت من المدن موقعاً لها ، وانتشار أفكار الحرية والمساواة مما ساعد على تحرير كثير من أقنان القرى وانتقالهم الى المدن للعمل فى المصانع الجديدة • ففى بريطانيا ــ مثلا ــ كان لاكتشاف « المكوك الطائر » والآلة البخارية أكبر الأثر فى زيادة الطلب على العمال الصناعيين[1] • ومن الصعب علينا تصور نمو المدن الأوربية دون الزيادة السكانية التى تحققت خلال القرن التاسع عشر ، وتحرر الأقنان من ربقة النظام الاقطاعى ، ونمو المشروعات الصناعية التى حولت كثيراً من المدن الأوربية فيما بعد الى قلاع صناعية • واذا كان البعض يذهب الى أن الظروف الطبيعية القاسية التى عاش فى ظلها العمال الصناعيون فى أوربا قد أدت الى ارتفاع معدلات الوفيات بينهم ، الا أن الهجرة الريفية ــ الحضرية الكثيفة كانت تمثل أفضل تعويض عن ذلك • والواقع أن الانجاز الحضرى الأوربى خلال تلك الفترة لا يتمثل فى ظهور مدن جديدة بقدر ما يتمثل فى قدرة المناطق الحضرية على استيعاب نسبة تصل الى ١٠٪ من مجموع سكان أوربا[2] • وربما كانت هذه النقطة هى أهم ما يشير اليه تعبير « الثورة الحضرية » الذى درج علماء الاجتماع المعاصرون على استخدامه • وعلى الرغم من ارتفاع النمو الاقتصادى الذى حققته بعض الدول الأوربية كبريطانيا ، الا أن ذلك لم ينعكس على مقومات الحياة فى المدن • فلقد ظلت هذه المدن تعانى من ارتفاع معدلات الوفيات ، وسوء الظروف السكنية ، وانتشار الأمراض والأوبئة • ان قراءة روايات تشارلز ديكنز Dickens قد تزودنا بصورة دقيقة تفصيلية للحياة فى هذه المدن •

ويميل بعض الدارسين المعاصرين الى استخدام مصطلح « مدن ما قبل الصناعة » Pre - industrial للاشارة الى الخصائص السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى كانت تميز المدن الأوربية قبل القرن التاسع عشر وكثير من المدن فى الدول النامية الآن •

---

(1) W. A. Robson; Great Cities of the World; London; 1957.

(2) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 32.

فلقد أوضح جدعون جوبرج Sjoberg فى مؤلفه «مدينة ما قبل الصناعة»[١] بعض الملامح الهامة التى يمكن من خلالها فهم واقع هذا النمط من المدن وتصور ما يحدثه التصنيع فيها بعد ذلك • وأول ما يمكن أن يقال ان « مدن ما قبل الصناعة » تشكل مراكز أساسية للادارة الحكومية وممارسة النشاطات الدينية ، وان الأعمال التجارية لا تسهم فى تحديد طابعها • أما التخصص المهنى فهو محدود ويكاد يقتصر على انتاج السلع الضرورية باستخدام الطاقة البشرية والحيوانية • ومعنى ذلك أن تقسيم العمل يكاد يكون أوليا حيث تتألف جماعات قليلة من الصناع والحرفيين • وفى هذه المدن يخضع العمل الانتاجى للأساليب التقليدية ، كما أن الطوائف الحرفية تحول دون ظهور التجديد ، لأن ذلك قد يتعارض مع مصالحها • وتسيطر على هذه المدن اعتبارات الاكتساب لا الانجاز ، بمعنى أن يرتبط الفرد بالمهنة التى يرثها عن آبائه • ويظل هذا الفرد مقيماً فى منطقة معينة من المدينة لا يغادرها الا فى القليل النادر • أما الضبط الاجتماعى فيتحقق من خلال الجماعات الأولية لا الثانوية • اذ أن الأفراد يعرفون بعضهم البعض ويرتبطون فيما بينهم بروابط قرابة ومصاهرة قوية • وتمارس الأسرة الممتدة التقليدية تأثيراً هائلا على الأفراد بحيث لا يستطيعون الفكاك من معاييرها والتزاماتها • وهناك بعد ذلك قيم عامة مشتركة تنظم سلوك الأفراد تنظيما محددا ، بحيث لا تسمح بحدوث انتهاكها الا فى أضيق الحدود • ولا توجد طبقة وسطى واضحة لأن الناس اما فقراء أو أغنياء • كذلك تسيطر على هذه المدن اعتبارات الخصوصية لا العمومية • فالأفراد المختلفون قد يدفعون أثمانا متباينة لنفس السلع ، كما لا يتوافر نظام عام يحدد الأوزان والأحجام والمقاييس • أما الحكم على الناس فيتم فى ضوء خصائصهم الشخصية ومكاناتهم لا فى ضوء تصرفاتهم وانجازاتهم[٢] •

---

(1) Gideon Sjoberg; The Preindustrial City; Glencoe; Ill; 1960.

(2) Ibid; Passim.

وباختصار فان «مدن ما قبل الصناعة» كما يراها جوبرج تتميز بالعزو ascription أكثر مما تتميز بالانجاز achievement ؛ وتؤكد الخصوصية Particularism أكثر مما تؤكد العمومية Universalism (١).

ولا يعنينا هنا الكشف عن مدى صدق ملامح «مدن ما قبل الصناعة» كما حددها جوبرج • اذ أن هذه الملامح تشكل ما يمكن أن نطلق عليه «نموذجاً مثالياً» ideal type قد لا يتحقق فى الواقع كفكرة ، لكنه قد يستخدم كأداة منهجية لدراسة هذا النمط من المدن • ومن هذه الزاوية يمكننا الاستعانة بهذا النموذج المثالى فى التعرف على بعض الملامح التى كانت تميز المدن الأوربية (وغير الأوربية) فيما قبل التصنيع • ومع ذلك فاذا كانت هذه الملامح تصدق ــ الى حد ما ــ على المدن الأوربية فيما قبل التصنيع ، الا أن من الصعب تطبيقها على المدن المعاصرة فى الدول النامية ، برغم ما ذهب اليه هوراس ماينر Miner من أنه قد وجد فى أفريقيا بعض المدن ذات النمط الاقطاعى التى لم تتأثر على الاطلاق بالحياة الحضرية الصناعية الحديثة(٢) • ان من الصعب وجود مدينة معاصرة فى أية دولة نامية لم تخضع لأفكار ومؤثرات العالم الحديث • وعلى الرغم من أن جوبرج قد بالغ فى تأكيد بعض ملامح «مدن ما قبل الصناعة» ، الا أن ذلك كان بهدف ابراز نقيض هذه الملامح فى المدن الصناعية • وهناك بالاضافة الى ذلك تساؤلات عديدة لم يستطع جوبرج الاجابة عليها • من ذلك ــ مثلا ــ أن زيادة عدد سكان «مدن ما قبل الصناعة» قد لايؤدى بالضرورة الى ضعف تأثير الجماعات الأولية وحدوث التفكك الاجتماعى • اذ تظل هذه المدن ــ برغم ذلك ــ محافظة على تكاملها أو ما أطلق عليه

---

(١) للتعرف على مضمون هذه المفاهيم كأدوات للتحليل السوسيولوجى انظر : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٥٦ ــ ٦٤ •

(2) Horace Miner: The Primitve City of Timbuctoo; Doubleday (Anchor); New York; 1965.

دوركايم Durkheim « كثافتها الأخـلاقية » • وعلى أية حـال فان تصورات جوبرج مانزال تحتل أهمية بالغة فى الدراسات الحضرية • ولايعود ذلك الى صدق هذه التصورات بقدر ما يعود الى ارتباطها « بمدن ما قبل الصناعة » التى مانزال تعانى حتى الآن من ندرة الدراسات التاريخيـة والاجتماعية •

obeikandl.com

الفصل الثانى

المدينة والحضارة : تحليل بنائى

شهد العالم الغربى خلال القرن التاسع عشر نمواً حضرياً لم يسبق له مثيل • وكان من الطبيعى أن يستجيب الفكر الاجتماعى لهذه الظاهرة فى محاولة لتحديد معالمها ونتائجها على المجتمعات الأوربية آنئذ • وعلى الرغم من أننا قد نلمس تحليلات موضوعية لنمو المدن الغربية وتأثير ذلك على الحياة الاجتماعية بوجه عام كما هو الحال بالنسبة لكتابات كارل ماركس[1] Marx وماكس فيبر[2] Weber ، الا أننا نجد ردود أفعال متباينة ازاء هذا النمو وعلاقته بالمصير البشرى بوجه عام • وربما كان النمو الحضرى المفاجىء وما صاحبه من مشكلات حادة هو الذى دفع بعض المفكرين والفلاسفة الى القاء اللوم على المدينة الغربية باعتبارها مصدراً لكثير من الشرور والأزمات • فاذا كان فولتير Voltaire قد أدان فى كتاباته المدينة الكبيرة الحجم ، فاننا نجد مونتسكيو Montesquieu يعتبرها جزءاً من النظام الاقتصادى المنتج ، بل أن وليام بليك Blake قد اعتبر لندن رمزاً للانسانية العالمية ومثالا لجنة الله على الأرض • وفى بعض الأحيان نجد المفكر الواحد يتخذ مواقف متباينة ازاء المدينة • فعلى سبيل المثال نجد فريدريك انجلز Engels فى مؤلفه « أحوال الطبقة العاملة فى انجلترا »[3] يبدى اعجابه بمدينة لندن ، ذاهبا الى أنها تمثل « عظمة انجلترا » ، لكنه — فى نفس الوقت — يؤكد استيائه من الظروف السيئة

---

(١) يمكننا التعرف على جانب من آراء ماركس فى المدينة وعلاقاتها بالريف والدور الذى لعبته البرجوازية فى النمو الحضرى فى الدول الرأسمالية فى كتابه « رأس المال » انظر :

Karl Marx; Capital; New York : Modern Library; 1954.

(2) Max Weber; The City; New York; 1958.

(3) F. Engels; The Condition of the Working Class in England: London; 1954.

التى كان يعيش فى ظلها العمال البريطانيون • ولقد ظلت محاولات ادانه أو تمجيد المدن قائمة حتى وقت قريب [١] • اذ نجد شبنجلر Spengler يعتبر المدينة الضخمة علامة من علامات انهيار الحضـــارة الغربية ، بينما نجـــد روستوف Ruestow ينظر الى المدينة بوصـــفها « قمـــة الثقافات الراقية » ، ذاهبـــا الى أن كل ثقـــافة « راقية » هى بالضرورة ثقافـــة « حضرية » •

وفى مواجهة المواقف الفكرية العاطفية التى اتخذها بعض الفلاسفـــة والمفكرين من المدينة ، يتعين علينا هنا تقديم تحليل بنائى يتناول أبعـــاد النمو الحضرى ، وتأثير المدينة على الريف المحيط بها ، ثم الانعكاسات التى أحدثتها المدينة على المجتمع الانسانى بوجه عام • ان المدينة هى فى نهايـــة الأمر تلخيص لنضال الانسان فى مواجهة الطبيعة وما يتصل بذ لك من اخفاق ونجاح • وعلى الرغم من أن الدور الحضـــارى للمدن لم يحظ بمعالجات حديثة متعمقة ، الا أننا نجد كتابات ابن خلدون وبوترو Botero تحاول ربط المدن بمدى قوة البناء السياسى • ومعنى ذلك أن ازدهار المدن يتصل مباشرة بظهور الامبراطوريات[٢] • لكننا لا نستطيع قبول هذه العلاقـــة البسيطة بسهولة ، اذ أن هناك متغيرات وسيطة يجب أن نضعها فى الاعتبار مثل مستوى التكنولوجيا ، وطبيعة القيم الثقافية ، فضـــلا عن الكوارث الطبيعية • كذلك فاننا لا نستطيع دراسة تأثير التنظيم السياسى عـــلى نمو المدن وانهيارها دون التعرف على الأدوار التى تؤديها هـــذه المدن فى الاسهام باقامة الامبراطوريات •

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : محمد الجوهرى ، « ظاهرة التحضر بين الادانة والتمجيد » فى : دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١ — ١٢ •

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، المرجع السابق وانظر ايضا :

Giovanni Botero; «The Greatness of Cities» (trans. by Robert Peterson); in Giovani Botero; The Reason of State and the Greatness of Cities; London; Routledge and Kegan Paul; 1956.

واذا ما تأملنا الحضـــارات الانسانية بمختلف أشكالها ومراحلها ، لاحظنا ارتباطا موجبا واضحا بين ضخامـــة الامبراطوريات وكبر حجم مدنها • ويجب أن نستثنى من ذلك الحضارات القديمـــة التى كانت فيها التكنولوجيا مانزال بدائية كما هو الحال بالنسبة لحضارة ما بين النهرين • وبتطور التكنولوجيا أصبح بالامكان زيادة عدد سكان المدن بسبب زيادة القدرة على انتاج الطعام ونقله من المناطق الريفية الى المراكز الحضرية • واذا مـــا قارنا بين الامبراطوريات القديمة والامبراطورية الرومانيـــة ، لاحظنا ان التقدم التكنولوجى كان شرطاً ضرورياً للسيطرة التى حققتها الأخيرة (الرومانية) على المناطق التابعة لها[1] • وترتبط هـــذه المناقشة نقطة بالغة الأهمية تتعلق بالدور الذى لعبته المدينـــة فى تدعيم التنظيم الاجتماعى للامبراطوريات • ان تركز الســـكان فى منطقة محدودة نسبياً قد أتاح فرصـــة حمـــايتهم وتأمين حيـــاتهم ، وهـــو الأمـــر الـــذى لم يتوافر لسكان القرى والمناطق المنعزلة • اذ أن ســـكان هـــذه القـــرى كانوا يفتقرون الى الموارد الاقتصادية والمهارات الفنية التى تمكنهم مـــن اقامة تحصينات تحميهم من غارات سكان القرى المجاورة أو قطاع الطرق • ومعنى ذلك أن القرى القديمة لم تكن قادرة على تطوير قوة عسكرية قادرة على حمايتها • وربما دفعت هذه النقطة بعض الدارسين الى القـــول بأن أول مدينة فى التاريخ كانت مدينة عسكرية ، وأن معظم المدن فى كل العصور قد عرفت الحاجة الى الدفـــاع والحماية من أخطار الغزوات القبلية أو الأسرية أو الاقليمية حتى أن ممفورد Mumford قد ذهب الى أن المـــدن لا تفهم تاريخيا الا كأماكن للحماية ، وأن عامل المنعة والعزلة inaccessibility لا الاتصال والحركة accessibility هـــو الأســـاس فيها • والواقع أن التكنولوجيا الحربية قد أسهمت فى تغيير القيمة التكتيكية لمواقـــع المـــدن الحربية • فالأكروبول فى الوقت الحالى هدف ثمين للغارات الجـــوية أكثر منه برجا للمراقبة • وفى الميدان ورث الخندق التبة[2] • وباختصار فلقد

---

(1) Reissman; L; The Urban Process; London; 1964.

(٢) انظر المناقشة الممتعة التى خصصها جمال حمـــدان لتناول المـــدن الحربية فى كتابه جغرافية المدن ، المرجع السابق ، ص ص ٢٢ — ٤٤ .

أتاحت فرصة التجمع فى مجتمعات كبيرة الحجم تطوير أساليب دفاعية عديدة مما كان سبباً فى ظهور المراكز الحضرية المبكرة •

والواقع أن المدينة منذ فجر تاريخها قد لعبت دوراً هاماً فى تطوير وسائل الاتصال وتبادل السلع والخدمات بين الجماعات الاجتماعية المختلفة• ومعنى ذلك أن المدينة قد ساعدت على تكثيف النشاطات التجارية • ولقد أوضح ديكينسون Dickinson أن المدينة التجارية قد تحولت من مرحلة السوق التجارى الى مرحلة التجارة الاقليمية حتى وصلت الى مرحلة التجارة العالمية ، وأن التجارة كانت سبباً فى مولد كثير من المدن الصغيرة فى أوربا[1] • ومع تقدم المواصلات الحديثة خلقت التجارة مدنا أشبه ما تكون بمستودعات جبارة توحى بأن العالم قد اجتمع فيها • ومعنى ذلك أن الفائض والحاجة والنقل قد شكلت العناصر الأساسية للدور التجارى الذى لعبته المدينة فى الحضارات المختلفة برغم اختلاف أبعاد هذا الدور باختلاف مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى • وفضلا عن ذلك فلقد كان لاقامة القادة السياسيين والزعماء الدينيين والفلاسفة والمفكرين فى المدن أكبر الأثر فى تسهيل عملية الاتصال والاسهام فى تحديد طابع الوحدات السياسية ، مما أسهم فى تدعيم الأنظمة السياسية • على أن تدعيم الاتصال لم يكن مقصوراً فقط على القادة والزعماء والمفكرين ، اذ أن طابع الاتصال الشخصى بين الأفراد العاديين قد لعب دوراً هاماً فى هذا المجال[2] • ففى كثير من الأحيان كانت العلاقات الشخصية تلعب دوراً هاماً فى حل الخلافات وتسوية النزعات التى كانت تنشأ بين الجماعات والقبائل المختلفة • اما اذا انتقلنا الى العصر الحديث وجدنا المدن المعاصرة تسهم بدور هام فى تدعيم الاتصال بمختلف أنواعه وأنماطه • فلقد أوضحت دراسة حديثة أن مراكز وسائل الاتصال الحديثة (كالراديو والتليفزيون وآلات الطباعة والادارات الأساسية) تميل الى التركز فى قطاعات محدودة من المدن •

---

(1) Robert; Dickinson; The West European City : A Geographical Interpretation; London; 1951.

(2) Lloyd Rodwin (ed.); The Future Metropolis; New York : George Braziller; 1961.

فعلى الرغم من أن مدينة لندن أو نيويورك تأخذ بسياسة اللامركزية ، الا أننا نلمس فيها تركيزاً شديداً فى المؤسسات الصناعية والمشروعات التجارية والاجهزة الادارية ، حتى أن البعض قد ذهب الى أن حجم الحى التجارى فى مدينة نيويورك يكاد يعادل مجموع أحجام الأحياء التجارية التى تضمها العواصم الاقليمية الامريكية الأساسية[1] .

على أن المدينة الصغيرة القديمة كانت تشكل فى حد ذاتها اطاراً جيدا للاتصالات الشخصية . فبسبب تخلف تكنولوجيا النقل كانت الجماعات الحاكمة بحاجة الى تدعيم هذه الاتصالات الشخصية حتى تتمكن من تحقيق أهدافها السياسية من ناحية ، والأهداف الاجتماعية من ناحية أخرى . لذلك كانت الصفوة الحاكمة تفضل الاقامة فى قلب هذه المدن ، ثم تقيم حولها مجموعة من المبانى الهامة التى من خلالها تدار النشاطات الدينية والسياسية والحكومية . ومن الطبيعى أن يتلاءم هذا النمط الايكولوجى مع مرحلة التطور الاجتماعى والاقتصادى التى كانت تميز هذا النمط من المدن . وقريبا من المنطقة التى تعيش فيها الصفوة الحاكمة توجد منطقة أخرى تعيش فيها الجماعات السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت تتمتع بقدر معين من النفوذ . ومن هنا نستطيع ان نفهم الدور الذى كانت تلعبه المدينة (أو ان شئنا الدقة : العاصمة) فى تدعيم الحياة الاجتماعية بكل ما تتضمنه من نشاطات ونظم . لقد كانت هذه العاصمة مقر اقامة الصفوة الحاكمة ، ومركز نشاط التجار وأصحاب الحرف ، ومصدر الالهام الدينى أو الروحى . وباختصار كانت العاصمة تمثل « منارة حضارية » بكل ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معان .

والمؤكد أن العلاقة بين الدين والمدينة علاقة قديمة وثيقة . وليس أدل على ذلك من أن الدين كان عاملا أساسياً فى نشأة كثير من المدن . فالمدن المصرية القديمة كانت ذات صبغة دينية . وفى العصور الوسطى الأوربية

---

(1) Edgar Hoover and Raymond Vernon; Anatomy of a Metropolis; Cambridge : Harvard University Press; 1959.

لم تفلت مدينة تقريبا من الأصل الدينى ، بل ان الذى حفظ تقاليد المـدن لأوربا خلال هذه العصور وأعاد بناءها بعدها هى الكنيسة • وحتى الآن لايزال الأساس الدينى هو معيار التفرقة بين أحجام المـدن المختلفة فى انجلترا • ويعد الاسـلام من أكثر الأديان تشجيعا لنمو المدن ، حتى أن بعض الباحثين قد ذهبوا الى أنه قد أسهم فى ظهور المدن بدرجة أكبر من المسيحية • لقد تحول اسم « يثرب » بعد الاسلام الى « المدينة » ، وهو اسم علم واسم نوع معاً • وكان المسجد أول أساس يقام فى « المدينة » الاسلامية الجديدة • ومن كل هذا نجد أن المدينة مدينة للدين بأصولها فى فى كثير من الأحيان ، وأن الشيوخ والأنبياء ـ وليس فقط الملوك والحكام ـ هم من نتاج المدن[1] • واذا كانت المدن القديمة قد شكلت مركزا دينيا هاما ، فانها قد شكلت ـ فى نفس الوقت ـ مركزا ثقافيا أساسيا[2] • إذ كانت الصفـوة الحاكمـة تستقطب الفنانين البارزين وتلحقهم بالحاشية الملكية • وبمرور الوقت أصبحت الاقامة فى العاصمة رمزاً للمكانة العالية • وتوحى لنا الدراسات التاريخية بأن عظمة الامبراطوريات تكاد تتلخص فى عظمة عواصمها • فلقد كانت روما عصب الامبراطورية الرومانية تماما كما كانت بيكين شريان الملكيات المختلفة • ولسنا بحاجة الى توضيح الـدور الذى لعبته لندن بالنسبة للامبراطورية البريطانية ، على الرغم مـن أن العواصم الحديثة لم تعد تلعب الدور المهيمن الذى كانت تلعبه العواصم القديمة[3] • واذا كانت التغيرات العـالمية الجـديدة قد حدت من الـدور السياسى الهائل الذى كانت تلعبه العواصم ، الا أن وسائل الاتصال الحديثة قد حولت العالم مرة أخرى ليصبح أشبه ما يكون « بقرية كبيرة » ، وان كنا مانزال نشهد وجود « عواصم علياً » supercapitals تتعدى حدود دولها السياسية كما هو الحال بالنسبة لمدينتى واشنطن وموسكو •

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، المرجع السابق ، ص ١٩٧٦ .

(2) Ralph Turner; The Great Cutural Traditions; Vol. I; The Ancient Cities; especially Chaps. 3-4; 6; 9-10; New York; 1941.

(3) Ernest Bergel; Urban Sociology; McGraw - Hill Book Company; New York; 1955. Chap. 8.

وهناك خلاف واضح بين بعض علماء الاجتماع حـول النشأة الريفية أو الحضرية للجماعات الحاكمة فى المدن القديمة • ويبدو أن مصدر هذا الخلاف يعود الى الدور الذى لعبه كبار ملاك الأرض فى بعض المجتمعات كالصين القديمة • وعلى الرغم من أن كبار الملاك كانوا يرتبطون ارتباطا قويـا بالأرض الزراعية ، الا أنهم كانوا يتخذون من المدينة مقراً لهم • والواقـع أن هذه المجتمعات القديمة لم تكن تعرف الفصـل الواضح بين احتكـار السلطات المختلفة (السياسية والدينية والاقتصادية) • ومن خلال دراسة الدور الذى لعبته المدن فى تدعيم الامبراطوريات والدول ، يمكننا تفسـير تأثير البناء السياسى على النمو الحضرى • لقد كانت المـدن تمثل أعظم الوسائل التى مكنت التنظيم السياسى التقليدى من تدعيم قـوته وفرض نفوذه • كذلك فان المدن لا تستطيع ــ بدورها ــ البقاء دون دعم حقيقى من النظام السياسى ، اذ أنها لا تعدو أن تكون نسقا فرعيا يحصـل على الطعام والمواد الخام من المناطق الريفية • ولا يمكن ان يتحقق ذلك الا اذا استطاعت الحكومة المركزية التوصل الى صيغة متطورة تمكنها من الحصـول على الفائض الاقتصادى من المناطق الزراعية ، وأساليب متعددة ومتنوعة تبـدأ من التأثير الايديولوجى على الفلاحين حتى اللجـوء الى القـوة والعنف[1] • وفى كثير من الأحيان كانت الصفوة الحاكمة تلجأ الى حل هذه المعضلة بتملك واحتكار الأرض الزراعية والاستعانة بالاقنان فى فلاحتها حتى تضمن وصول الفائض الاقتصادى الى المدن • ومن هنا تبدو العلاقة المبكرة الواضحة بين الملكية الزراعية والسلطة السياسية • أما تأمين خطوط المواصلات والنقل فكان أمرا مصيريا بالنسبة لهـذه الكيانات السياسية ، كما كان تأثيره بالنسبة لنمو المدن هائلا • واذا كانت الصفـوة السياسية قد جنت الفوائد المباشرة من ذلك ، فان المدينة قد اكتسبت فى نفس الوقت مزيدا من الدعم والقوة والقدرة على الاستمرار وبسط نفوذها على المناطق

---

(1) Gideon Sjoberg; The Rise and Fall of Cities : A Theoretical Perspective.; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 219-231.

الريفية • والملاحظ ان النمو الحضرى قد حقق أقصى درجـات ازدهاره بزيادة الاستقرار السياسى وتأمين خطوط المواصلات وطرق التجـارة • وربما فسر لنا ذلك الاسهام الذى قدمته التجارة للنمو الحضرى • ان أعظم التجمعات البشرية هى بلاشك ما يرتبط بالتجارة • والمدينة التجارية تجذب اليها النشاطات المتعددة كالحربية أحيانا ، وكالادارية غالبا ، وكالصناعية أخيرا • والواقع أن المدينة التجارية تستند الى اعتبارات جغرافية هامـة لانها تمثل نقطة تقاطع على طريق حركة • وليس أدل على ذلك من الذبذبات التى لحقت بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسى منذ كشف طريق رأس الرجاء وما أدى اليه ذلك من ذبذبات أصابت المدن التجارية الداخلية كمـا أصابت الموانى التجارية • ومع ذلك كله فان من الصعب تصور نمو المدن التجارية دون وجود سلطة سياسية قوية • فاذا كان الفينيقيون قد استطاعوا اقامة موانى تجارية فى البحـر المتوسط ، فان ذلك لم يكن ليتم دون وجـود أسطول بحرى قوى قادر على حمايتها • ومثل هذا يقال عن اليونان قديما وايطاليا خلال العصور الوسطى ، حيث تمكنتا بفضل أسطولهما البحرى من فرض سيطرتهما التجارية على موانى البحر المتوسط • وهناك شواهـد تاريخية عديدة تشير الى أن البندقية قد حققت ازدهارها التجـارى بعـد انتصارات عسكرية أحرزتها ، وأن انتعاش بعض المدن الايطالية مثل جنوه وبيسا خلال القرنين العاشر والحادى عشر قد ارتبط بسيطرة هاتين المدينتين على سردينيا وتورسيكا وبعض المناطق الجنوبية[1] •

والواقع أن السلطة السياسية والقوة العسكرية لم يؤديا الى نمـو التجارة وبالتالى ظهور المدن فى العالم القديم فقط ، بل اننا نلمس هـذه الظاهرة فى عصور أحدث • فبفضل القوة العسكرية تمكنت الامبراطوريتان الأسبانية والبريطانية من اقامة مراكز تجارية هامـة • واذا كانت بعض هذه المراكز مثل سنغافورة وهونج كونج قد نمتا وازدهرتا ، فان ذلك قد

(1) Henri Pirenne; Medieval Cities : Their Origins and the Revival of Trade; Princeton; N. J; 1950.

تم بفضل حماية الاسطول البريطانى لهما • ولنا أن نتوقع بعد ذلك وجـود صلة قوية بين اتساع الاقاليم التى تسيطر عليها الدولـة وتنوع الموارد والمصادر الطبيعية[1] • والنتيجة الطبيعية لذلك هى نمـو المدن والمراكز الحضرية بوجه عام • فبدون السيطرة التى حققتها اليونان القديمـة على مناطق عديدة من العالم ، كان من المستحيل على هذه الدولة القليلة الموارد أن تشهد نموا حضريا مبكرا على نحو ما رأينا فى موضع سابق • ومانزال نلمس حتى الآن هذه الصلة القوية ، اذ كيف نستطيع تفسـير النمـو الصناعى الحضرى الذى شهدته كل من انجلترا واليابان برغم ندرة مواردهما الطبيعية • واذا كان لنا أن نفسر بعض المواقف المعاصرة كأزمة الطاقة ، فاننا نستطيع تفسيرها بشكل أفضـل اذا مـا أخذنا فى الاعتبار علاقات القوة التى تربط بين الدول النامية المنتجة المصدرة للبترول والدول الصناعية المستهلكة له • بعبارة أخرى فان البناء الصناعى ــ الحضرى العالمى قـد أصبح الآن يدين فى وجوده وقدرته على النمو والازدهار لعوامل خارجية برغم قدرته على التأثير فى هذه العوامل بحكم قدراته التفاوضية •

واذا كانت المدينة تدين بالكثير للدين والسياسة والتجارة فى نمـوها وازدهارها ، الا أن دينها للصناعة أفدح ، خاصة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا الثورة الصناعية وما أحدثته من تحولات اجتماعية • وعلى الرغم من أن الصناعة البدائية التى كانت قائمة خلال العصور الوسطى لم تخلق مدناً صناعية قائمة بذاتها كما فعلت التجارة بالنسبة للمدن التجارية ، الا أن تغلغل الصناعة فى الحضارة الحديثة قد خلق مدنا متخصصة تبدأ بالتخصص فى انتاج المواد الخام حتى التخصص فى تصنيع سلعة انتاجية واحدة• وهناك أمثلة عديدة توضـح هـذا التخصص الانتـاجى الحضرى • فديترويت عرفت بصناعة السيارات ، وبوسطن بصناعـة الأحـذية ، ويوركشـير بالصوفيات ، ولانكشير بالقطنيات • ومثل هذا يمكن أن يقال عن كثير من مدن العالم • واذا ما قارنا بين عدد السكان الحضريين فيما قبل الثـورة الصناعية وبعدها فى مختلف أنحاء العالم ، لاحظنا على الفور الى أى مدى

(1) R. Dickinson; The West European City; op. cit.

لعبت الصناعة دورا هائلا فى نمو المـدن • فقبل الثورة الصناعية لم تكن نسبة سكان المدن فى الدول الاوربية تزيد عن ١٠٪ من مجمـوع سكانها ، بينما تصل الآن فى بعض هذه الدول الى ٨٠٪[١] • وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين قد بالغوا بعض الشىء فى عدد سكان المدن القديمة كما هو الحال بالنسبة لروما فى العصر الوسيط وبعض المدن الصينية القديمـة ، الا أن الكتابات الحديثة تؤكد أن أكبر مدن العالم لم تصل فى أى وقت من الاوقات الى مليون نسمة فيما قبل الثورة الصناعية •

وفضلا عما سبق لعبت المدينة ــ ومانزال ــ دورا كبيرا فى نقـل الثقافية الحضرية الى المناطق الريفية•إذ يكشف تاريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية عن ارتباط قوى بين المدن واتسـاع نطاق النظام السياسى[٢] • واذا كانت المدينة عند نشأتها تشغل حيزا مكانيا محدودا ، الا أن ثقافتها سرعان ما تنتقل الى بقية المناطق • وأحد الأسباب القوية التى يمكن أن تفسر لنا ذلك أن المدينة خلال تاريخها قد تمتعت بقدرات تنظيمية ومعارف فنية لم تتوافر للمناطق الريفية • كما أن انتقال العناصر الثقافية الحضرية الى مختلف الاقاليم كان من الامور الضرورية لتدعيم النظام السياسى • ويوضح لنا التاريخ الاستعمارى كيف أن القوى الأجنبية كانت تستعين بالمدن القائمة فى المستعمرات من أجل تدعيم نفوذها السياسى ، بل ان بعض المدن فى الدول النامية يدين فى وجوده للقواعد العسكرية التى أقامتها القوى الاستعمارية فى هذه الدول • وربما استشهدنا على ذلك بالمدن الساحلية (وعلى الأخص الافريقية) التى أقامها الاستعمار فى بعض المستعمرات • اذ كانت هذه المدن بمثابة قنوات للاتصال بالعالم الخارجى والتجـارة فى بعض السلع الكمالية • ولقد أوضح جيرالد بريز Breese أن المـدن فى

---

(1) Emrys Jones; Towns and Cities; Oxford University Press; 1970; pp. 13-37.

(2) R. S. Lopez; «The Crossroads within the Wall» in O. Handlin and J. Burchard (eds.); The Historian and The City; Cambridge; Mass; 1963.

الدول النامية قد أدت ــ ومانزال ــ دورا حضاريا هاما • ففيها ترسم السياسات وتوضع البرامج التى تحدد سيطرة أو نفوذ التنظيم السياسى الحضرى على بقية أنحاء البلاد[١] • ومع ذلك فلقد عمل الاستعمار الأوربى الحديث على وأد العواصم الوطنية الداخلية ليعيد توجيه الإقاليم الى مصالحه البحرية فظهرت كلكتا محل دلهى ، وقديما نقل الاغريق والرومان العاصمة من منطقة القاهرة الداخلية الى الاسكندرية الساحلية فى مصر ، ومن منطقة دمشق الى انطاكية فى الشام • وخلال الحقبة الاستعمارية كان الساحل هو دائما المنطقة الحرجة فى الاحتكاك حيث تقع عليه معظم العواصم كالجزائر وتونس والرباط وداكار وسايجون • وعلى الرغم من الأهمية التى لعبها الموقع فى تحديد أهمية المدن القديمة ، الا أن العامل التاريخى يفسر لنا أيضا ما وصلت اليه بعض المدن من نمو وازدهار برغم عدم تمتعها بموقع جغرافى متميز[٢] • هنا تبدو المدن وكأنها خير تعبير عن روح الدولة • فمن خلال المجد الأدبى والتاريخى تستمد بعض المدن استقرارا وقوة اندفاع تصلان بها الى مرتبة العواصم •

وهناك شواهد تاريخية توضح كيف أن انتقال الحياة الحضرية الى بقية الاقاليم قد أسهم فى ظهور نهضة حضارية عامة • فخلال فترات حكم بعض الملكيات الصينية القديمة انتشرت أساليب الحياة الحضرية الى المناطق الجنوبية والغربية والشمالية من الصين • كما أن امبراطورية الموريا Maurya فى الهند قد أسهمت فى ظهور بعض المدن فى المناطق الريفية الجنوبية وسيلان • وخلال فترة لاحقة عمل الرومان على نشر أساليب الحياة الحضرية فى كثير من مناطق أوربا وعلى الأخص فرنسا وبريطانيا وجنوب ألمانيا والنمسا وأجزاء من البلقان • بل إن الرومان قد أحيوا

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، ترجمة محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٩٣ .

(2) Harold Mayer; «A Survey of Urban Geography; in Philip Hauser and Leo Schnore; (ed); The Study of Urbanizatiin; op. cit; pp. 81-114.

بعض المدن فى شمال افريقيا والشرق الأوسط • ويمكننا الاشارة هنا أيضا الى الدور الذى لعبته الامبراطورية الاسبانية فى ظهور كثير من المدن فى أمريكا الجنوبية خلال الفترة الاستعمارية ، مما أدى بعد ذلك الى نشأة مدن عديدة فى أمريكا الوسطى • وينطبق ذلك أيضا على الامبراطورية البريطانية التى أقامت كثيرا من المدن الهامة فى المستعمرات الافريقية أمثال جوهانسبيرج وكيب تاون وليوبولد فيل والبزابيث فيل[1] • وعلى الرغم من أن هذا النمط الأخير من المدن يمثل حالة خاصة بسبب غلبه الطابع الأوربى عليه والدور الاستعمارى التسلطى الذى يمارسه على المناطق الريفية ، الا أنه قد أسهم — ولو بطريق غير مباشر — فى ظهور مدن وطنية أفريقية عديدة ، مما دفع بعض الباحثين الى القول بأن هناك « نمطاً حضرياً أفريقيا مميزا »[2] •

ولا نستطيع فهم الدور الحضارى الذى لعبته المدينة خلال تاريخها دون تبنى منظور بنائى يمكننا من فهم العلاقات البنائية بينها وبين الريف • وتتخذ هذه العلاقات أنماطا متعددة[3] • فهناك العلاقات الادارية التى من خلالها تلعب المدينة دورا اداريا هاما بالنسبة للريف • وبقدر حجم المدينة ونفوذها بقدر ما تتمتع به من مكانة ادارية بالنسبة للمناطق الريفية المحيطة بها • واذا ما تناولنا العلاقات الثقافية وجدنا المدينة بالنسبة لاقليمها الريفى تمثل المدرسة والمعهد والجامعة • بل اننا قد نستطيع القول بأن ثمة علاقة موجبة قوية بين حجم المدينة ومستوى التعليم • فالمدن الكبرى هى موطن الجامعات • والمدينة بعد ذلك هى المسرح والسينما والملهى والنادى وكل ما يتصل بالخدمات الثقافية الحضرية • وهى (أى

---

(1) P. C. Lloyd; Africa in Social Change; Penguin Books; Baltimore: 1967; pp. 100-112.

(2) K. Little; West African Urbanization; London : Cambridge University Press; 1965; p. 30.

(3) David Glass; The Town in a Changing Civilization; London; John Lane; 1953.

المدينة) موطن الصحافة ومصدر التوجيه الفكرى للريف المجاور • أى أنها المركز الثقافى للصفوة المفكرة ، ونواة الرأى العام ، وأداة التوحيد الفكرى، حتى ذهب بعض الدارسين الى أن المدينة هى « ينبوع الرأى والفكر » • واذا كانت المدينة فى الغرب معمل الحضارة الحديثة ، فهى فى الشرق موطن وبؤرة هذا الاحتكاك ومركز الانتشار الحضارى • أما العلاقات السكانية بين المدينة والريف فتتميز بطابع خاص • فالمدينة استمدت سكانها دائما من الريف الذى كان ولايزال يمثل « بذرة الأمة ومشتلها » • واذا كانت مدن العصر الصناعى تدين فى نشأتها للهجرة الريفية ، فان استمرارها وتزايدها يدين لها أكثر وأكثر • وبهذا المعنى فان القرية لا تزود المدينة بالطعام فقط ، ولكن بالانسان أيضا • وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر فيما يتعلق بنتائج الهجرة من القرية الى المدينة ، الا أننا نعتقد أن حسم هذا الاختلاف يتوقف على نوعية المهاجرين وأعدادهم ، ثم تأثير ذلك على كل منهما • واذا كانت المدن قد لعبت دورا حضاريا خلال تاريخها ، فان هذا الدور لم يكن ليتحقق دون ظهير ريفى قوى •

ويمكننا التعرف على طبيعة العلاقات الاقتصادية بين المدينة والقرية اذا ما تناولنا التفاعل الاقتصادى بينهما • ان الريف — كما يقول شابو — هو « مطعم المدينة الفسيح » ، وهو بهذا المعنى مصدر التغذية والتموين • وخلال السنوات الأخيرة أبدى بعض الدارسين اهتماما بما يمكن أن نطلق عليه « زراعات المدن » أو « زراعات الضواحى » التى تهدف أساسا الى اشباع الحاجات الغذائية الحضرية • ومن الطبيعى أن يؤثر ذلك على بعض المتغيرات الوسيطة • فنمو المدن يؤدى فى كثير من الأحيان الى ارتفاع أسعار الأراضى الزراعية المجاورة لها • لذلك فان أسعار الأرض تقل كما ابتعدنا عن المدينة مع تساوى الجودة ، كما أن كثافة الانتاج الزراعى تقل مع سعر الأرض كلما ابتعدنا عن المدينة • بل ان هذه العلاقة الايكولوجية تحدد أيضا نوعية المحاصيل • فقريبا من المدن تزرع المحاصيل العالية القيمة السريعة التلف • أما المحاصيل الثقيلة القليلة القيمة التى تعيش

طويلا فيقذف بها بعيدا عن المدينة[١] • ولقد أوضح بعض الباحثين أن كل المدن الكبرى والصغرى محاطة بسوار من فلاحة البساتين والفواكه والخضروات والزهور وذلك لارتفاع أسعار الأرض وقصر عمر هذه المحاصيل ووفرة السوق المباشرة • ولاشك أن التجارة تشكل أحد مظاهر التفاعل الاقتصادى بين المدينة والقرية ، ان لم تكن أهمها على الاطلاق • فالدور التجارى للمدينة يجعلها أداة التكامل الاقليمى ، اذ أنها تضم أسواقاً عديدة ترتبط مباشرة بمصالح الفلاحين كأسواق التجزئة والحيوانات[٢] • ولقد أوضحنا فى موضع سابق كيف أن المدينة عبر تاريخها قد أسهمت فى نمو التجارة وتطور وسائل الاتصال ، مما كان له الأثر الأكبر فى تحديد مجريات التطور الاجتماعى والاقتصادى •

وخلال السنوات الأخيرة شهد علم الاجتماع اهتماما كبيرا بدراسة العلاقة بين التحضر (أى زيادة نسبة السكان الحضريين) والنمو الاقتصادى • ولا يعنينا هنا استعراض الكتابات المختلفة التى تناولت هذه القضية ، بقدر ما يعنينا التعرف على الدور (التاريخى والمعاصر) الذى لعبته المدن فى تحقيق التقدم الاقتصادى والتغير الثقافى • وحينما يناقش علماء الاجتماع والاقتصاد التنمية الاقتصادية يبدو التصنيع أحد الوسائل الأساسية لتحقيقها ، مما يؤدى بدوره الى زيادة معدلات التحضر سواء بارتفاع عدد سكان المدن القائمة أو بانشاء مدن جديدة[٣] • ومع أن بعض الدارسين يميلون الى تأكيد العلاقة بين التصنيع والتحضر ، الا أننا نجد تجاهلا كبيرا للعوامل المؤدية الى ارتفاع نسبة التحضر فضلا عن العوامل الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية التى تسهم فى نمو المدن • وفى كل الأحوال فان من الصعب حسم قضية العلاقة بين التصنيع والتحضر على الأقل من وجهة النظر التاريخية • فاذا كان التصنيع قد لعب دورا

---

(١) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(2) Ernest Bergel; Urban Sociology; op. cit; 145 ff.

(3) Bert F. Hoselitz; «The Role of Cities in the Economic Growth of Underdeveloped Countries»; in Gerald Breese (ed); The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 232 ff.

معينا فى ظهور كثير من المدن ثم نموها فيما بعد ، الا أن كل المدن التى شهدها التاريخ لم تنشأ ولم تزدهر بفضل الصناعة • فالمدن القديمة ــ كما سبق أن أشرنا ــ نشأت فى الأصل كمراكز ادارية ودينية وتعليمية • ومن خلال هذه النشاطات اكتسبت هذه المراكز الحضرية أهميتها التاريخية التى لم تكن لتتحقق لها من خلال الزيادة السكانية فقط • واذا كانت نسبة ضئيلة من السكان قد عاشت فى المدن القديمة ، الا أنها كانت تضم الصفوة الفكرية المؤثرة القادرة على تشكيل الحياة الاجتماعية الحضرية بمختلف جوانبها • والواقع أن معظم الكتابات التى تناولت هذه القضايا قد اعتمدت على خبرات التصنيع التى شهدتها الدول الأوربية منذ الثورة الصناعية ، وبالتالى يصعب تطبيقها على الدول النامية الآن بسبب اختلاف الظروف التى مرت بها كل منها[1] • ولتوضيح وجهة نظرنا يتعين علينا مناقشة الاطار التاريخى للعلاقة بين التحضر والنمو الاقتصادى ، اذ أن ذلك يعيننا على فهم أدق للدور الحضارى الذى لعبته المدن •

من الحقائق المألوفة أن النمو الاقتصادى الذى شهدته أوربا منذ بدايات القرن الحادى عشر قد ارتبط بنمو المراكز الحضرية وزيادة أعداد سكانها • ولقد وصل النمو الاقتصادى ذروته فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر • غير أن هذه المراكز الحضرية ما لبثت أن فقدت أهميتها ووزنها الحضارى بسبب غزوات البرابرة وسيطرة العرب على تجارة البحر المتوسط • ومن خلال هذه التطورات نشأت مراكز حضرية جديدة على طول بحر الشمال ، ثم حققت بعد ذلك قدرا ملحوظا من الازدهار[2] • وبرغم ذلك كله فان المدن الأوربية لم تلعب دورا

---

(١) السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٢ وما بعدها .

(2) Alfons Dopsch; The Economic and Social Foundations of European Civilization; London; 1954; pp. 303-357.

اقتصاديا هاما حتى بدايات القرن الخامس عشر ، بل ان أكبر انجازاتها تكاد تنحصر فى المجالات السياسية والتعليمية والادارية • ففى بريطانيا ــ مثلا ــ انفصلت الوظائف السياسية عن الوظائف التعليمية للمدن كما يتمثل ذلك فى استقلال كل من كمبردج وأكسفورد عن وستمنستر [1] • وهناك عدد قليل من المدن الأوربية استطاع خلال تلك الفترة الجمع بين الوظائف التعليمية والسياسية كما هو الحال بالنسبة لبعض المدن الألمانية ، وان كنا نستطيع تفسير ذلك فى ضوء التطورات السياسية التى حدثت خلال تلك الحقبة •

والواقع أن الدور الاقتصادى الحقيقى الذى لعبته المدن الأوربية لم يتضح الا خلال العصور الوسطى • وتكاد تنحصر هذه المدن فى منطقتى البحر المتوسط وبحر الشمال • ولقد بدأت هذه المدن فى ارساء دعائمها الاقتصادية حتى كادت أن تغطى على أدوارها السياسية والتعليمية والدينية • على اننا يجب ألا نبالغ فى عدد المراكز الحضرية التجارية والمالية التى نشأت خلال العصور الوسطى ، كما يجب علينا ألا نبالغ فى أعداد سكانها • فلم تكن كولونيا أو فرانكفورت بأكثر من قرية صغيرة لاتضم أكثر من خمسة آلاف نسمة • ويكاد ينطبق ذلك على معظم المدن الأوربية خلال تلك الفترة • ويمكننا التمييز بين نوعين أساسيين من المراكز الحضرية التى ظهرت خلال العصور الوسطى • الأول يضم المراكز التجارية والمالية، والثانى يشتمل على المراكز الصناعية • وفى هذين النوعين من المراكز الحضرية عاشت البرجوازية التجارية وتكونت البيوت المالية التى ازدادت حجما فيما بعد • ومن أمثلة هذه المراكز الحضرية : جنوة وميلانو ومرسيليا وبرشلونة فى منطقة البحر المتوسط ، وهامبورج وبريمين وكولونيا وانتويرب فى منطقة شمال جبال الألب • وهناك عدد من السمات العامة المشتركة التى تميز هذه المراكز الحضرية • من ذلك خضوعها لسيطرة جماعات صغيرة

---

(1) Ibid; p. 312.

من التجار الأثرياء والعائلات المالية[1] • أما البناء الاجتماعى أو الطبقى المميز لهذه المراكز الحضرية فيتألف من ثلاث فئات أساسية : الأسر الغنية التى تشكل الصفوة السياسية ، والحرفيون ومساعدوهم الذين ينتمون الى طوائف حرفية ويعيشون فى مستوى اقتصادى متوسط ، وأخيراً الفقراء والخدم والمهاجرون الجدد من الريف الذين كانوا يقومون بأعمال مؤقته غير منتظمة • والملاحظ أن أفراد الفئة الأخيرة لم يشكلوا طبقة عاملة متجانسة نسبيا الا بحدوث الثورة الصناعية وذلك خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • أما المراكز الحضرية الصناعية التى ظهرت خلال العصور الوسطى فقد كانت أكبر حجماً • ففى شمال ألمانيا نجد بعض المراكز الحضرية المبكرة التى تخصصت فى صناعات النسيج والتعدين وبناء السفن • ومن الطبيعى أن تحتاج هذه المراكز الى أعداد كبيرة من العمال اذا ما قورنت بالمراكز الحضرية التجارية أو المالية • وكنتيجة لذلك ازدادت الهجرة اليها من المناطق الريفية المجاورة • ولعل ذلك يوضح لنا الدور الحضارى الذى لعبته المدينة بالنسبة للاقليم الذى وجدت فيه[2] • وإذا كان بعض الدارسين والمؤرخين قد أكدوا أن العمال الصناعيين الذين كانوا يعملون فى هذه المراكز الحضرية المبكرة لم يشكلوا « طبقة اجتماعية » بالمعنى الحديث لهذا المفهوم ، الا أننا نستطيع القول بأنهم (أى العمال) قد اكتسبوا بحكم اقامتهم الحضرية تصورات سياسية واضحة لم تكن متاحة لقرنائهم الريفيين •

وعلى الرغم من وضوح الطابع الاقتصادى لكثير من مدن العصور الوسطى ، الا أن ذلك يجب ألا يجعلنا نتجاهل الأدوار السياسية والثقافية والفكرية التى كانت تؤديها • فمن خلال هذه المدن تطورت الأساليب الادارية الجديدة ، ونمت المؤسسات التعليمية ، وبدأت العلوم والفلسفات تتخذ

---

(1) Sylvia Thrupp; The Merchant Class of Medieval London; Chicago; 1948; Chap. IV.

(2) P. Halmos; P.; (ed); The Development of Industrial Societies; Sociological Review Monograph; No. 8. 1964.

مساراً مختلفاً • وفوق كل ذلك كانت هذه المدن تضم الصفوة المتعلمة التى كان لها أكبر الأثر فى ظهور العلمانية كحركة فكرية تستهدف الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية • واذا ما استخدمنا تصوراتنا البنائية قلنا: إن هذه المدن قد بدأت تستكمل معالمها بظهور « روح اقتصادية » جديدة على نحو ما يذهب ماكس فيبر[1] • ولم تقتصر هذه الروح الاقتصادية على زيادة النشاط التجارى والصناعى والمالى ، بل تعدت ذلك الى المجال البنائى ، خاصة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا الجماعات الجديدة التى بدأت تتكون خلال تلك الفترة وعلى الأخص جماعات العمال والحرفيين • ولم يكن ليتحقق ذلك كله دون ظهور « ثقافة حضرية » تتضمن عناصر مساوقة ومساندة للتغيرات البنائية • ولعل ذلك يوضح لنا الى أى مدى يكشف التحليل البنائى ــ التاريخى عن تنوع المواقف التى من خلالها تلعب المدينة أدوارها الحضارية • فاذا كانت مدن العصور الوسطى قد أسهمت فى تطور التكنولوجيا ونمو التصنيع وتكون الطبقات العاملة ، فان المدن الحديثة تؤدى الآن دورها الحضارى من خلال تخصصها الشديد فى انتاج سلعة معينة أو جزء محدود منها كما هو الحال بالنسبة لمدن الاتحاد السوفيتى خلال العقدين الماضيين ، حتى أننا أصبحنا نجد مدنا متخصصة فى صناعة جزء واحد من أجزاء السيارة •

هذا وقد اهتم بعض العلماء الاجتماعيين بدراسة وتقويم الدور الذى لعبته المدن فى تحقيق النمو الاقتصادى داخل المجتمعات الأوربية خلال فترة الثورة الصناعية وما صاحبها من نمو حضرى • ويمكننا الاستشهاد هنا بوجهتى نظر متعارضتين • أما وجهة النظر الأولى فقد قدمها ماركس Marx فى كتابه « رأس المال » حيث يقول : « إن التاريخ الاقتصادى الشامل للمجتمع يمكن تلخيصه فى حركة الفصل بين المدينة والريف»[2] • أما وجهة النظر الثانية فقد عبر عنها أحد منتقدى ماركس وهو روستوفتزيف

(1) Max Weber; The Protestant Ethic and Spirit of Capitalism; translated by Talcott Parsons; New York; 1948.

(2) Karl Marx; Capital; Vol. I; op. cit; p. 387.

M. I. Rostovtzeff حيث يقول : « يتصور البعض أن هناك مشكلة تنجم عن وجود تباين بين السكان الريفيين والسكان الحضريين • ولست أنكر وجود هذا التباين ، لكنى أنكر وجود عداوة بين الريف والمدينة • واذا كانت بعض المجتمعات تشهد تفاوتاً بين كل من الحياة الريفية والحضرية ، فان هناك مجتمعات أخرى فى أوربا الغربية والولايات المتحدة لا تعرف هذا التفاوت »[1] • ومن الواضح أن ماركس ورستوفتزيف قد اهتما بابراز اختلاف طابع التنظيم الاقتصادى فى كل من المدينة والريف ، حيث نجدهما يبرزان بعض الجوانب الهامة التى تتميز بها الحياة الحضرية ــ دون الريفية ــ كنمو المصانع ، وزيادة حجم الطبقة العاملة ، وتبلور الطبقة البرجوازية الرأسمالية ، فضلا عن وجود الصفوة الفكرية التى تمارس تأثيراً ثقافياً هائلا • ولعل ذلك يوضح لنا أنه برغم اختلاف وجهات نظر هذين الرجلين ، الا أنهما قد نظرا الى المدينة نظرة بنائية تتكامل فيها العناصر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية • بل اننا نجد ماركس الذى يعد من أبرز ناقدى المجتمع الرأسمالى الحضرى يبدى تقديره فى مواضع مختلفة من كتاباته للدور الذى لعبته البرجوازية الحضرية فى نشأة الرأسمالية الغربية ، على الرغم من أنها (أى البرجوازية) قد أسهمت ــ كما يقول ــ فى وضع النهاية المحتملة للمجتمع الرأسمالى[2] •

وتدفعنا الاعتبارات السابقة الى مناقشة تاريخية للعلاقة بين التصنيع والتحضر ، خاصة وأن مثل هذه العلاقة تكشف عن أبعاد الدور الحضارى الذى لعبته المدن خلال تاريخها • فبقدر ما يرتبط التصنيع بالتحضر بقدر ما تتشكل الحياة الحضرية بوصفها أسلوباً للحياة اذا ما استخدمنا تعبير لويس ويرث Wirth[3] • فلقد ذهب جيرالد بريز Breese الى أن كلا من

---

(1) Michael Rostovtzeff; «Cities in the Ancient World»; in Richard T. Ely (ed.); Urban Land Economics (Ann Arbor; 1952); p. 18.

(٢) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، الفصل الخامس .

(3) Louis Wirth; «Urbanism as a Way of Life»; in P. Hatt and A. Reiss (eds); Cities and Society; Free Press; 1957.

التصنيع والتحضر قد يحدث مستقلا دون ارتباط بينهما ، وان كان استمرار التنمية الاقتصادية قد يؤدى ـ فى وقت لاحق ـ الى الارتباط الواضح بينهما[١] • أما لامبارد Lampard فقد أوضح أن المدن الكبرى قد لاتتطلب وجود اقتصاد متطور ، لكن استمرار النمو الاقتصادى قد يدفع الى وجود مدن مختلفة الأحجام[٢] • ومن الواضح أن النمو الحضرى قد يحدث دون تصنيع مقابل ، بينما يصعب حدوث التصنيع دون نمو حضرى موازٍ • ومن الشواهد التاريخية المألوفة أن التصنيع قد حدث بعد أن وصل معدل التحضر الى مستوى معين ، لكنهما ما لبثا أن حققا قدراً من التوازن بينهما وعلى الأخص فى الدول الغربية • ولقد عكف ولبرت مور Moore على دراسة النتائج أو الآثار الثقافية التى أحدثتها الثورة الصناعية ـ الحضرية فى الدول الغربية • ومن بين هذه النتائج أن التصنيع قد فرض وجود معايير تنظم العمل وتؤكد أهمية الحرية الفردية والتجريب • وهذا يعنى نمو الاستعداد لتقبل الأفكار الجديدة ، واكتشاف المهارات المستحدثة والمخاطرة بالتخصص فى مجال مهنى محدود ، والدخول فى تنظيمات صناعية تتصف بالعلاقات الرسمية المبكرة • كذلك ذهب مور الى أن التصنيع فى الدول الغربية قد تطلب وجود نظام متطور للتبادل الاقتصادى يستند الى العلاقات التجارية اللاشخصية سواء فى مجال السلع أو الخدمات • وفضلا عن ذلك يتطلب التصنيع قدراً من الاستقرار السياسى يتيح مزيداً من فرص الاستثمار وحشد رؤوس الأموال وتوفير الحماية لها • كذلك فان التصنيع يحتاج الى تشجيع من قبل الدولة دون أن تتدخل فى سياسته الا بالقدر الذى يحقق الصالح العام[٣] • ومن الواضح أن تصورات مور تكاد تصدق فقط على تجربة التصنيع فى العالم الغربى • وربما كان ذلك أحد جوانب قصورها • فاذا ما تأملنا تجارب التصنيع فى الاتحاد السوفيتى واليابان وجدنا واقعاً

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، المرجع السابق .

(2) E. Lampard; «The History of Cities in Economically Advanced Areas»; Economic Development and Culture Change; Vol. 3; 1955; p. 82.

(3) Wilbert Moore; The Impact of Industry; Prentice - Hall; 1965; Chap. 3;4.

مختلفاً ممـا يوحى بصعوبة التسليم بوجـود منطق صناعى عالمى [١] . ان تعدد وتنوع الدعائم الثقافية للمجتمعات الصناعية المعاصرة يوضح لنا كيف يمكن ان يتم التصنيع ويزداد التحضر فى ظل انساق ثقافية متباينة . ولقد أوضح ريزمان Reissman كيف أن القومية كأيديولوجية قـد لعبت دوراً هاماً فى نضال كثير من شعوب العالم الثالث من أجل الحصول على الاستقلال ووضع خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى كان التصنيع (ونمو المدن) أحد أبعادها[٢] . وقد يكون حسـم هـذه القضايا أمـراً ممكنا اذا ما تناولنا تجارب وخبرات التصنيع فى كل من الدول المتقدمـة والنامية على السواء ، وهو ما سنخصص له الفصل التالى بأكمله .

---

(1) Barrington Moore Jr; The Social Origin of Dictatorship and Democracy; Allen Lane; The Penguin Press; London; 1966.

2) L. Reissman; The Urban Process; 1964; pp. 180-188.

obeikandl.com

الفصل الثالث

المدينة والبناء الاجتماعى : دراسة مقارنة

انطلقت مناقشاتنا السابقة فى دراسة نشأة المدينة من تصورات تاريخية واسعة مكنتنا من فهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التى أسهمت فى نمو المدينة وتنوع الأدوار التى أدتها خلال الفترات التاريخية المختلفة • وفى هذا الفصل نحاول مناقشة العلاقة بين المدينة والبناء الاجتماعى من منطلق أكثر تحديداً يستند الى تحليل هذه العلاقة تحليلا نوعياً • واذا كنا قد توقفنا فى الفصلين السابقين عند دراسة المدن التى صاحبت الثورة الصناعية ، فاننا نتناول فى هذا الفصل المدن الصناعية التى نمت وتطورت واكتسبت طابعها المميز خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهى المدن التى يشيع وجودها فى الدول المتقدمة (وعلى الأخص دول أوربا الغربية وأمريكا الشمالية واليابان والاتحاد السوفييتى فضلا عن دول أوربا الشرقية) • ومن الصعب فهم هذه المدن الصناعية دون التعرف على الملامح الأساسية التى تميز المدن فى الدول النامية التى توجد فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية • ان المقارنة بين هذين النوعين من المدن تتيح لنا فرصة الفهم الواسع العميق لعلاقة ظاهرة التحضر بالبناء الاجتماعى • وعلى الرغم من أن الدراسات المقارنة بين المدن المختلفة التى تنتمى الى ثقافات متباينة مانزال محدودة للغاية ، فان المحاولة التى نقدمها فى هذا الفصل قد تعد خطوة من أجل كسر الحواجز العنصرية والجغرافية المفروضة على علم الاجتماع المعاصر •

واذا ما تأملنا التراث المعاصر فى علم الاجتماع الحضرى ، لاحظنا اهتماما بالمشكلات الحضرية التفصيلية دون محاولة فهم هذه المشكلات فى ضوء البناء الاجتماعى من ناحية ، ثم علاقة هذه المدن بالمجتمع من ناحية أخرى• وأعتقد أن مثل هذا الاهتمام لا يشجع كثيراً على تقدم علم الاجتماع

الحضرى • ان المدن ليست أنساقاً مغلقة بقدر ما هى فى حالة تفاعل مستمر مع الريف المحيط بها والنظام السياسى الذى توجد فى ظله • بل اننا نذهب الى حد القول بأن من الصعب فهم ما يدور فى مدينة صغيرة فى دولة نامية دون التعرف على طبيعة النظـام العالمى[١] • وبسبب ميل بعض علمـاء الاجتماع الى التركيز على المشـكلات المحدودة ، باتوا يعتقدون أن أى تحليل بنائى واسع النطاق قد يؤدى فى نهاية الأمر الى الابتعاد عن الواقع الاجتماعى • هم اذن يريدون مزيداً من التحليل وقليلا من التركيب [٢] • وأعتقد أن الخطوة الأولى لاقامة فهم عالمى شامل لظاهرة التحضر تكمن فى تدعيم الدراسات المقارنة ، وتطوير الأساليب المنهجية ، ثم النظر الى هذه الظواهر فى سياقها البنائى ــ الثقافى[٣] • وقبل أن نشرع فى تقديم تحليلنا المقارن يتعين علينا الاشـارة الى بعض الملاحظات الأولية • وأول هـذه الملاحظات يتعلق بمفهوم « التكنولوجيا » • فعند مناقشة دور التكنولوجيا فى المدينة ، فاننا لا نقصد فقط مجرد تطور الأساليب الانتاجية ، بل نقصد أيضا كل ضروب المعرفة المنظمة التى تؤدى الى التخصص وتقسيم العمل • أما ثانى هذه الملاحظات فتتصل بالأبعاد الثقافية التى تميز المـدن • اذ أن ابرازنا لهذه الأبعاد لا يعنى اغفالا للظروف الانتاجية والمادية المرتبطة بها • أما الملاحظة الثـالثة فتتعلق بالظروف السـياسية المرتبطـة بالظواهـر الحضرية • ذلك ان توضيح هذه الظروف هو شرط ضرورى لفهم ديناميات التحضر والايديولوجيات المختلفة المرتبطة به[٤] • وفى ضوء هذه الملاحظات

---

(١) السيد الحسينى ، « العـالم الثالث ، تنميـة أم تبيعة » فى : السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٤ .

(2) Norwood Hanson; Patterns of Discovery; Cambridge: Cambridge University Press; 1958.

(٣) جدعون جوبرج ، « علم الاجتماع الحضرى المقارن » ترجمة السيد الحسينى فى : محمـد الجوهرى وآخرون ، دراسـات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٣ ــ ٤٨ .

(4) Clark Kerr etal; Industrialism and Industrial Man; Cambridge University Press; 1960.

يمكننا البدء فى تناول المدينة والبناء الاجتماعى فى كل من الدول المتقدمة والنامية •

أولا ــ المدينة والبناء الاجتماعى فى الدول المتقدمة :

على الرغم من ندرة الدراسات المقارنة التى تتناول المدن فى الدول الصناعية ، الا أن الشواهد المتاحة لدينا تؤكد أن عدداً كبيراً منها (أى المدن) يرتبط بالمشروعات التجارية والصناعية أكثر من ارتباطه بالوظائف الدينية والحكومية • وربما استثنينا من ذلك بعض العواصم العالمية الهامة• وفى هذه المدن نجد تخصصاً واضحاً فى استخدام الأرض ، كما نلمس انفصالا واضحا بين مكان الاقامة ومكان العمل • وربما كان نمو الضواحى فى المدن الغربية أوضح مثال يعبر عن ذلك • أما الطبقتان العليا والوسطى فتميلان الى الاقامة خارج المدينة، تاركة قلبها للمشروعات التجارية والأجهزة الادارية[1] • ويختلف هذا النمط عما نجده فى مدن الدول النامية حيث لاتزال الاقامة فى وسط المدينة رمزاً للمكانة الاجتماعية • ويبدو أن التقاليد الاقطاعية التى سادت المدن الأوربية خلال العصور الوسطى قد جعلت من الاقامة فى وسط المدينة رمزاً للمكانة العالية ، بينما لانجد ذلك فى المدن الأمريكية التى لم تعرف هذه التقاليد الاقطاعية ، مما كان سبباً فى نمو الضواحى الأمريكية • ومن الطبيعى أن تلعب السيارة دوراً هاماً فى هذا المجال • لقد اخترلت المكان وخلقت بذاتها ثقافة محددة المعالم[2] • وما أن تنشأ الضاحية حتى تجذب كثيراً من السلع والخدمات الضرورية ثم تتحول فى النهاية الى منطقة تجارية •

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين قد أشاروا الى أن البناء الطبقى فى مدن الدول المتقدمة يتسم بالمرونة الشديدة مما حال دون ظهور نمط

---

(1) Leo F. Schnore; The Urban Scene; Free Press; New Yorh; 1965; Chap. 16.

(2) Leo F. Schnore; «The Socio - Economic Status of Cities and Suburbs;» American Sociological Review : 28 : 76-85; February; 1963.

ايكولوجى محدد ، الا أننا نجد بعضاً آخر يؤكد وجود « جزر حضرية » منعزلة داخل المدن الغربية الكبرى • ويستشهد هؤلاء الدارسون بأحياء الزنوج والصينيين والمكسيكيين فى المدن الأمريكية[1] • واذا ما قبلنا وجهة النظر الذاهبة الى أن مرونة البناء الطبقى فى المدن الغربية يحول دون العزلة الحضرية ، فاننا لا نستطيع التسليم بأن هذا الواقع سوف يظل قائماً • فمن خلال معدلات الحراك الاجتماعى العالية التى تتميز بها الدول الغربية يمكن القول بأن البناء الطبقى الحضرى يظل فى حالة تغير دون أن يعنى ذلك اختفاء النظرة الى الاحياء الحضرية كرمز من رموز المكانة الاجتماعية • وعلى الرغم من أن الدراسات الحديثة قد أوضحت مدى تنوع واختلاف المدن فى الدول المتقدمة ، الا أنها قد أكدت وجوه شبه عديدة • من ذلك ــ مثلا ــ أن الاتجاه نحو الضواحى قد حول قلب المدينة الى منطقة تجارية وادارية كثيفة ، وأن ذلك قد أتاح الفرصة لمزيد من العلاقات الشخصية بين المديرين وأصحاب المشروعات ، حتى بدا قلب المدينة وكأنه « قلعة تجارية ادارية »[2] • وفى ضوء هذه النقطة يمكننا فهم أسباب هروب المشروعات الصناعية الى أطراف المدن • أما أنماط استغلال الأرض فى المدن الغربية فتتوقف على اعتبارات عديدة من بينها : حجم هذه المدن ، وعدد سكانها ، وكثافة النشاطات التجارية والادارية فيها ، وطبيعة بنائها الطبقى، وموقعها الجغرافى ، وعلاقاتها بالمدن القريبة منها •

وعلى الرغم من اهتمام علماء الاجتماع بدراسة البناء الطبقى فى المدن الصناعية ، الا أننا نجد اختلافاً ملحوظاً بينهم فيما يتعلق بأبعاد هذه البناء • وبامكاننا تفسير هذا الموقف اذا ما علمنا أن علماء الاجتماع فى دراستهم للطبقة الاجتماعية ينطلقون من تصورات متباينة ان لم تكن

---

(1) St Clair Drake and Horace R. Clayton; Black Metropolis; Harcourt: Brace; New Yrok; 1945.

(2) Edgar Hoover and Raymond Vernon; Anatomy of a Metropolis; Cambridge; Harvard University Press; 1959.

متعارضة[1] • فالذين يتبنون التصور الماركسى يميلون إلى ابراز التباين الطبقى فى المدن الصناعية الغربية ، بينما نجد الذين ينطلقون من التصور البرجوازى يؤكدون المرونة التى ينطوى عليها البناء الطبقى فى المدن حتى ولو كانت هناك تفاوتات طبقية واسعة قائمة بالفعل • ويمكننا أن نلمس هذا الاختلاف بين علماء الاجتماع فى تحليلاتهم للبناء الطبقى فى مدن الاتحاد السوفييتى • ويزداد هذا الاختلاف شدة اذا ما تناولت هذه التحليلات البناءات الطبقية الحضرية فى مجتمعات متباينة وفترات زمنية متباعدة[2] • ويمكننا ان نضيف الى ذلك خصائص المدن الغربية ذاتها • فهى تتضمن قوى تعمل على تأكيد الجمود الطبقى ، كما تتضمن فى نفس الوقت قوى معاكسة تسهم فى احداث مرونة طبقية • ولقد وأضح فوراستيه Fourastie أن الفقراء فى مدن الدول المتقدمة لا يعانون من الفقر معاناة شديدة ، كما أن الصفوة الحضرية ليست بعيدة تماما عن الرجل العادى وذلك بفضل وسائل الاعلام المتطورة[3] • أما فيما يتعلق بالأقليات العنصرية التى تعيش فى المدن الغربية فان موقفها ينطوى على ازدواجية واضحة : فهى من ناحية مضطرة للحفاظ على ذاتيتها وهويتها حتى تتمكن من تشكيل قوة اجتماعية مؤثرة ، لكنها من ناحية أخرى مضطرة للتخلى عن قيمها التقليدية واكتساب قيم حضرية جديدة كالانجاز والكفاءة •

وتميل الدراسات السوسيولوجية المعاصرة الى الاعتماد على المهنة

---

(١) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٠ . الفصل الأول بعنوان : « الطبقة والنظام السياسى » ، ص ص ١٧ — ١٨ . وانظر أيضا : ب . بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(2) Alex Inkeles and Raymond A. Bauer; The Soviet Citizen; Cambridge : Harvard University Press; 1956.

(3) Jean Fourastié; The Causes of Wealth; trans and ed. by Theodore Caplow; New York : Free Press of Glencoe; 1960.

فى قياس كثير من التحولات الطبقية فى المدن الصناعية[١] • وكنتيجة لذلك نجد معظم هذه الدراسات تؤكد وجود معدلات عالية للحراك المهنى (أو الاجتماعى) فى المدن الصناعية الكبرى ، وذلك على العكس من مدن الدول النامية • كذلك تشير هذه الدراسات الى أن الحراك الاجتماعى فى المدن الصناعية يتخذ شكل الانتقال من المهن اليدوية الى المهن غير اليدوية [٢] • ومن خلال الحراك الاجتماعى الصاعد فى المدن الصناعية يلتحق الأفراد بالمهن الجديدة المرتبطة بالتقدم التكنولوجى • وفضلا عن ذلك فان الجماعات المهنية ككل تحاول تحقيق مزيد من الهيبة والقوة والنفوذ • وعلى الرغم من كثرة الدراسات التى تناولت الحراك الاجتماعى فى المدن الصناعية ، الا أن هناك قضايا عديدة مانزال بحاجة الى البحث والدراسة • من ذلك تأثير « ثورة الالكترونات » على العمالة الحضرية بمختلف أشكالها ، والدور الذى تلعبه المهن الجديدة فى احداث تغييرات اجتماعية وسياسية ، والصراع بين المهن القديمة والمهن الجديدة • وعلى الرغم من قلة الدراسات المقارنة التى تتناول البناءات المهنية فى المدن الصناعية ، الا أن هناك شواهد تشير الى وجود وجوه شبه بينها فى هذا المجال • فلقد أوضح إنكلز Inkeles وروسى Rossi أن المدن الصناعية فى الدول المتقدمة تتميز بخاصية مشتركة هى وجود جماعات كبيرة من الموظفين الحكوميين وأصحاب المهن الفنية العليا (كالأطباء والمحامين والمدرسين) تحتل مكانة متميزة داخل البناء الطبقى الحضرى ، وأن سكان هذه المدن يشتركون فى نظرتهم وتقويماتهم للمهن المختلفة والهيبة المتفاوتة المرتبطة بها[٣] • بيد أننى أعتقد أن هذه الخاصية لا تكاد تميز المدن فى الدول المتقدمة وحدها ، اذ أننا نجد فى مدن الدول النامية بناءات حضرية تحتل فيها المهن الفنية العليا مكانة متميزة •

---

(١) السيد الحسينى ، « معنى الحراك المهنى : تقويم امبريقى » ، المجلة الاجتماعية القومية ، مايو ، ١٩٦٩ .

(2) Seymour Lipset and Reinhard Bendix; Social Mobility in Industrial Society; Berkeley : University of California Press; 1959.

(3) Alex Inkeles and Peter Rossi; «National Comparisons of Occupational Prestige»; A. J. S; 61; 1956; pp. 329-339.

أن هذه الخاصية لا ترتبط بالتقدم والتخلف بقدر ماترتبط بحجم المدن وتنوع نشاطاتها التجارية والصناعية والسياسية والادارية والثقافية .

واذا ما تناولنا بعد القوة أو السلطة بوصفه أحد أبعاد الطبقة الاجتماعية فى المدن الصناعية ، لاحظنا أن تخصص الأدوار المهنية قد أحدث تأثيراً ملحوظاً على السيطرة التى تمارسها الصفوة الحاكمة سواء على المستوى المحلى أو القومى . فلم يعد صانع القرار السياسى يعتمد أعتمادا كاملا على قدراته ومواهبه الشخصية . إذ أنه بحاجة مستمرة الى أجهزة متخصصة تزوده بالمعطيات والبيانات الضرورية لاتخاذ القرارات الرشيدة. وربما كان ذلك أحد الأسباب الأساسية التى مكنت «المتخصصين» و « الفنيين » من اكتساب قوة سياسية هائلة فى المدن الصناعية الكبيرة ، حتى أن الزعماء السياسيين لم يفلتوا من الخضوع لهذه القوة برغم ما يتمتعون به من سلطات واسعة . ويبدو أن القوة السياسية التى يتمتع بها هؤلاء « المتخصصون » و « الفنيون » تحظى بقبول معظم أفراد المجتمعات الصناعية . ويحاول بعض الدارسين تفسير البناء الصناعى — الحضرى فى الدول المتقدمة فى ضوء فكرة تقسيم العمل ، متأثرين فى ذلك بنظرية إميل دوركايم Durkheim . فاذا كان المجتمع الصناعى يساعد على اتساع نطاق تقسيم العمل والتخصص ، فان ذلك من شأنه الحد من التفاوتات الطبقية والتقليص من السلطة التى تتمتع بها الصفوة الحاكمة . وكلما زادت العمليات التخصصية التى يقوم بها الفنيون ، أصبح من الضرورى على المديرين التنسيق بين هذه العمليات[1] . وربما كان ذلك أحد الأسباب التى دفعت بعض علماء الاجتماع الى القول بأن المجتمع الصناعى الحديث قد شجع على ظهور « صفوة ادارية » محتكرة[2] . وعلى الرغم

---

(١) السيد الحسينى ، « مقدمة الترجمة العربية » فى ت . ب بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ .

(2) C. Wright Mills; The Power Elite; New York : Oxford University Press; 1956.

من وفرة الدراسات الحديثة التى تناولت الصفوات السياسية فى المجتمعات الصناعية ــ الحضرية ، الا أن الاهتمام بخصائص هذه الصفوات مايزال محدودا للغاية[١] • وللوهلة الأولى ينجذب بعض علماء الاجتماع السياسى لاغراء مقارنة الصفوة السياسية فى كل من الدول الصناعية والدول النامية، حيث يذهبون الى أن الأولى تعتمد على الجدارة والاستحقاق ، بينما تستند الثانية الى التقاليد والعرف والحقوق المطلقة • والواقع أن من الصعب التسليم بهذه القضية • اذ أن الدول النامية تعرف زعامات وطنية حققت أوضاعها بفضل جهودها الشخصية وتبنيها للمبادىء الوطنية[٢] •

والواقع أن دراسة البناء الطبقى فى الدول الصناعية لم تكن حكرا على علماء الاجتماع • فخلال أربعينيات هذا القرن أبدى بعض الأنثروبولوجين اهتماما كبيرا بدراسة الطبقات الاجتماعية الحضرية • ومن أقدم الدراسات فى هذا المجال تلك التى أجراها روبرت وهيلن ليند Lynds على مدينة صغيرة تقع فى الوسط الغربى من الولايات المتحدة • فلقد تناول الباحثان الحياة الاجتماعية السائدة فى هذه المدينة ودرسا مختلف جوانبها مثل كيفية الحصول على الدخل ، وأساليب الحياة المنزلية ، وطرق الممارسات الدينية ، وأنماط الترويح ، والعلاقات بالأجهزة والمؤسسات الادارية • واستنادا الى هذه الجوانب قسم الباحثان سكان المدينة الى طبقتين أساسيتين : الأولى طبقة رجال الأعمال ، والثانية الطبقة العاملة ، حيث تؤدى كل منهما وظائف أساسية مختلفة الى حد ما[٣] • وفى دراسة

---

(١) السيد الحسينى ، « الدولة فى المجتمع الرأسمالى : تحليل نقدى » . دراسة حول كتاب رالف ميلباند ، المجلد الاجتماعية القومية ، ١٩٧٣ ص ص ٩٥ — ١٠١ .

(٢) السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ ص ٦٠ .

(3) Michael Aiken and Paul E. Mott; The Structure of Community Power; Random House; New York; 1970.

لاحقة تناول فيها الباحثان تأثير هذه المدينة بظروف الكساد الاقتصادى فى أوائل الثلاثينيات ، أوضحا الى أى مدى لعب البناء الطبقى وعلاقات القوة الاقتصادية والسياسية دوراً هاماً فى مواجهة الظروف الاقتصادية القاسية •

وربما كانت دراسات لويد وارنر Warner عن البناء الطبقى للمدن الأمريكية من أبرز الدراسات الحضرية الشاملة برغم الانتقادات المريرة التى تعرضت لها • فلقد درس وارنر ثلاث مدن أمريكية صغيرة الحجم ، إعتقد أنها ممثلة للنمط الشائع للمدن الأمريكية • ومن خلال استخدامه لمعايير ذاتية وموضوعية فى قياس الطبقات الاجتماعية (١) ، توصل الى تحديد الطبقات الاجتماعية الأساسية فى هذه المدن التى أطلق عليها : العليا ــ العليا upper - upper ، والعليا ــ الدنيا Lower - upper والوسطى ــ العليا upper - middle ، والوسطى ــ الدنيا Lower - middle والدنيا ــ العليا upper - lower ، وأخيراً الدنيا ــ الدنيا Lower - Lower (٢) • وتمثل الطبقة العليا ــ العليا أرستقراطية الميلاد والثروة ، حيث تتألف من الأسر القديمة التى ورثت ثروتها وأسلوب حياتها عبر أجيال عديدة • ويميل أفراد هذه الطبقة الى الزواج الداخلى ، ومن ثم يرتبطون فيما بينهم بروابط قرابة ومصاهرة قوية • وبالاضافة الى ذلك فان أفراد هذه الطبقة على قدر كبير من المهارة فى أداء ضروب مختلفة من

---

(١) تم ذلك من خلال اداتين : الأولى هى المشاركة المقومة evaluated participation التى من خلالها يمكن التعرف على تقويمات الأفراد لمكانات بعضهم البعض ، والثانية هى دليل خصائص المكانة index of status characteristics التى تضم مجموعة من المؤشرات الموضوعية كالمهنة ومصدر الدخل ونمط المسكن والمنطقة السكنية . انظر

W. Lloyd Warner; (ed.); Yankee City; Yale University Press; New Haven; Conn; 1963.

(٢) السيد الحسينى ، « عرض وجيز لاهم اسهامات لويد وارنر فى دراسة التدرج الاجتماعى » ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الثالث ، ١٩٦٦ ، ص ص ٩١ ــ ١١١ •

السلوك الطقوسى وقواعد السلوك المعقدة • أما الطبقة العليا ــ الدنيا فتشبه الطبقة العليا ــ العليا فى كثير من الوجوه • فأفراد كلتيهما يقيمون فى مساكن كبيرة فخمة ، ويشاركون فى الهيئات والحياة الاجتماعية غير الرسمية ، ويعملون فى مهن متماثلة كالمهن المالية والصناعية والوظائف الكبرى • ويكمن الاختلاف الأساسى بينهما فى أن أفراد الطبقة العليا ــ الدنيا يفتقدون عراقة الأصل والنسب • وعلى الرغم من أن أفراد هذه الطبقة يمتلكون ثروة أكبر ومساكن أفخم وسيارات أفخر وسلع مادية أخرى أغلى ثمنا اذا ما قورنوا بأفراد الطبقة العليا ــ العليا ، الا أنهم يشعرون أن هذه الثروة حديثة جداً لأن النجاح المهنى كان سبباً فى الحصول عليها •

أما الطبقة الوسطى ــ العليا فتتألف من كبار رجال الأعمال وأصحاب المهن الفنية العليا • ويتمتع أفراد هذه الطبقة بمكانة عالية من وجهة نظر سكان المدينة • وعلى الرغم من أنهم يعيشون فى مساكن متميزة فى أفضل مناطق المدينة ، الا أن متوسط دخولهم أقل من متوسط دخول أفراد الطبقتين العليين • أما أفراد الطبقة الوسطى ــ الدنيا فهم دائما من صغار رجال الأعمال والموظفين الكتابيين وبعض العمال المهرة • وتقع مساكنهم الصغيرة « النظيفة » فى الشوارع الجانبية من المدينة ، كما أنهم حريصون على أموالهم ويميلون الى الادخار • أما الطبقة الدنيا ــ العليا فتتألف من العمال شبه المهرة والصناع وعمال الخدمة الى جانب عدد قليل من صغار التجار •ويعيش أفراد هذه الطبقة فى الأحياء المختلفة من المدينة ، كما أن متوسط دخولهم أقل من متوسط دخول أفراد الطبقات الأعلى • وأخيراً نجد الطبقة الدنيا ــ الدنيا تتألف من العمال شبه المهرة وغير المهرة • ويعيش أفراد هذه الطبقة فى أكثر أحياء المدينة تخلفا ، كما أنهم ــ من وجهة نظر بقية سكان المدينة ــ يتصفون بانعدام القيم الأخلاقية •

ومنذ أن نشرت دراسات ورانر وهى تتعرض لانتقادات عنيفة فى مواجهة دفاع عنيد عنها • ولعل أهم وأوضح هذه الانتقادات هو ما يتعلق بالبناء الطبقى للمدن التى درسها • فلقد زعم وارنر أن ما توصل اليه فى

هذا المجال يمكن أن ينطبق على المدن الأمريكية بوجه عام • بيد أن المدن التى درسها كانت صغيرة الحجم بحيث يصعب معه تعميم نتائجها على المدن الأمريكية العملاقة • اذ أن هذه المدن الأخيرة تتسم بقدر كبير من التباين والانعزال ، مما قد يصعب معه استخدام المنهج الأنثروبولوجى الذى يكاد يقتصر على دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة[١] • لذلك فان ادعاء وارنر بأن مدينة « اليانكى سيتى » التى درسها تمثل معملا لدراسة أمريكا « هو ادعاء يجهل السمات الأساسية التى تميز الحياة القومية من تخصص اقليمى وتباين محلى وحراك اجتماعى ، وهى سمات لا توجد على مستوى المجتمع المحلى »[٢] • كذلك انتقد بعض الدارسين وارنر لأنه لم يقدم وصفا شاملا لبناء المكانة كما يوجد فى المدينة الصغيرة ، اذ أن الوصف الذى قدمه كان مقصورا على نظرة أفراد الطبقتين الوسطى والعليا الى بناء المكانة[٣] •وفضلا عن ذلك انتقد رايت ميلز Mills دراسات وارنر لخلوها من البعد التاريخى • اذ أنها لم توضح التحولات التى طرأت على البناء الطبقى الحضرى عبر الزمان ، مما كان سببا فى تجاهل وارنر للحركات الاجتماعية المرتبطة بالايديولوجيات ، تلك الحركات التى تسعى الى تغيير البناء الطبقى[٤] • ولقد قدم وارنر عددا من الردود على الانتقادات التى وجهت اليه ضمنها أحدث مؤلفاته « الحياة الأمريكية » • ومن بين ما قاله فى هذا المجال : « إن دراسة المدن الصغيرة تزودنا بجانب من جوانب البناء الاجتماعى المركب للحياة الأمريكية • كما أن مثل هذه الدراسة تشكل نواة لدراسة الحياة الاقتصادية والسياسية التى تميز المدن الأمريكية الكبرى • وسواء اعتبرنا دفاع وارنر محاولة لتقريب شقة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(2) Paul Hatt; «Stratification in the Mass Society»; American Sociological Review; 1950; pp. 100-112.

(3) N. Gordon; Social Class in American Society; Durham; Duke University Press; 1958.

(4) C. Wright Mills; «Review of Lloyd Warner and Paul S. Lunt; The Social Life of a Modern Community»; American Sociological Review; Vol. VII; 1942; pp. 30-45.

الخلاف بين وجهة نظره ووجهات نظر منتقدية ، أو أنها تسعى الى اعادة الاهتمام بالقضايا مصدر الخلاف ، فانها ستظل ذات أهمية كبيرة عند دراسة موضوع شائك كموضوع البناء الطبقى فى المدن الصناعية .

واذا ما انتقلنا الى الأسرة فى المدن الصناعية ، لاحظنا اجماعا بين علماء الاجتماع على شيوع الأسرة الزواجية أو « النووية » فى مقابل الأسرة الممتدة الكبيرة الحجم التى تشيع فى المدن التقليدية . ولقد حققت الأسرة النووية أقصى درجات الشيوع والانتشار فى المدن الأمريكية ، ثم ما لبثت أن أصبحت النمط الأسرى السائد فى كل من مدن بريطانيا وألمانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتى واليابان . ويذهب بعض علماء الاجتماع الى أن الأسرة النووية الشائعة فى المدن الصناعية تتلاءم — الى حد كبير — مع متطلبات الحراك الاجتماعى والحرية التى أصبحت تتمتع بها المرأة الغربية عموما . بل ان هذه المدن قد أصبحت تشهد ما يمكن أن نطلق عليه « ثقافة الشباب » ، بمعنى وجود قيم ومعتقدات تميزهم عن بقية الجماعات العمرية الأخرى . اذ أن ارتفاع مستويات المعيشة فى هذه المدن قد حرر هؤلاء الشباب من الالتزام الشديد بضرورة العمل من أجل مساعدة عائلاتهم وذلك على عكس ما هو سائد فى مدن الدول النامية[1] . ونظرا لاعتماد البناء المهنى فى الدول المتقدمة على المهارات الفنية المتخصصة ، فان صغار السن لا يستطيعون العمل بسهولة كما يفعل قرناؤهم فى المدن التقليدية . ولسنا بحاجة بعد ذلك الى توضيح الحرية التى تتمتع بها الفتى أو الفتاة فى اختيار قرينته أو قرينها ، اذ أن ذلك يعد من الامور الشخصية التى لاتخضع للالتزامات الجماعية على نحو ما هو شائع فى مدن الدول النامية[2] .

وفى مدن الدول المتقدمة حققت المرأة مكانة اجتماعية عالية نسبيا اذا

---

(1) Elizabeth Bott; Family and Social Network; London : Tavistock Publications; 1957.

(٢) السيد الحسينى وجهينه العيسى ، « المعايير والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطرى » ، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد الثالث ، ١٩٨١ ، ص ص ٣٩ — ٦٦ .

ما قورنت بتلك التى حققتها المرأة فى مدن الدول النامية • ويبـــدو ذلك واضحا من خلال عدد من المؤشرات الهامة من بينها نسبة النساء العاملات فى المهن المختلفة ، والتمتع بالحريات الشخصية[1] • وربما كانت « حركات تحرر المرأة » أوضح دليل على ما نذهب اليه • ومع أن المرأة فى مدن الدول الصناعية قد غزت معظم المجالات المهنية ، الا أنها ما تزال تفضل العمـل فى بعض المجالات دون البعض الآخر ، مما يشير الى أن المجالات المهنيـة فى هذه المدن لاتخلو من تأثير « الأنوثة » و « الذكورة » عليهـا • واذا ما عدنا مرة أخـرى الى تفسير انتشـار الأسرة النووية فى مـدن الدول الصناعية ، وجدنا علماء الاجتماع يؤكدون مدى ملاءمة هذا النمط الأسرى للحراك الاجتماعى الـذى هـو من أهم خصائص البناءات الحضرية ــ الصناعية المعاصرة • ان اتساع نطاق التعليم وظهور المهن الجديدة قـد تطلبا تحرير الأسرة من بعض الضغوط التى كانت تخضع لها حتى يستطيع الأفراد الافادة من الفرص التى تتيحها لهم التكنولوجيا الدائمة التغير • واذا كانت الأسرة النووية قد أصبحت مصدرا للأمان الانفعالى للفرد ، الا أنها أسهمت ــ فى نفس الوقت ــ فى اضعاف الروابط الأسرية ، ممـا أدى الى ظهور علوم وفنون جديدة تعنى بمعالجة المشكلات الأسرية كالطب النفسى والارشاد الزواجى • واذا كان بعض علماء الاجتماع يؤكدون أن الأسرة النووية هى أحد متطلبات التصنيع والتحضر ، فاننا نجد بعضا آخر منهم يذهب الى أن الدول الصناعية المتقدمة تشهد صورا معدلة من الأسرة الممتدة بفضل وسائل الاتصال كالتليفون والخطابات والزيارات المتبادلة ، وأن الاستقلال المكانى ليس هو البعد الوحيد الذى يميز الأسرة النووية[2] • ولقد أوضح ايوجين لتواك Litwak أن بعض المدن الأمريكية الصغيرة الحجم

---

(1) Elizabeth Bott; op. cit; p. 48.

(٢) علياء شكرى ، « مشكلات أساسية حـول الأسرة والتصنيع » فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السـابق . ص ص ٤١٩ ــ ٤٤٥ .

تشهد « أسرا ممتدة معدلة » لاتعتمد على التقارب الجغرافى ولا تتعارض مع تحقيق الحراك الاجتماعى [١] • كـذلك أوضح تونسيند Townsend فى دراسة له على مدينة لندن أن أفراد الطبقة الدنيا يستطيعون تحقيق بعض المزايا الاقتصادية والمكاسب السياسية من خلال ارتباطهم وحرصهم على الروابط القرابية الممتدة[٢] • وعلى الرغم من أن بعض الدارسين قد استخدموا هـذه النقطة للتدليل على مـدى ملاءمة الأسرة النووية للبناء الصناعى ــ الحضرى ، الا أن ذلك لايخلو من مبالغة • ويبدو أن التفسير الأقرب الى الواقع هو أن تحول المجتمعات الأوربية من الاقطاع الزراعى الى الرأسمالية الصناعية قد ترك « بصمات » بنائية وثقافية ما تزال قائمة حتى الآن • وعلى الرغم من كثرة الدراسات التى أجريت حـول الأسرة الحضرية فى الدول الصناعية ، الا أن هناك قضايا كثيرة مانزال بحاجة الى مزيد من الدراسـة • من ذلك ــ مثـلا ــ العـلاقة بين الروابط القرابية والتنظيمات البيروقراطية ، وكيفية تأثير التكنولوجيا الحديثة على تغـير أساليب قضاء وقت الفراغ •

وفيما يتعلق بالتنظيم الاقتصادى السائد فى مدن الدول المتقـدمة نلمس بعض الملامح الواضحة • اذ أن التصنيع قد أدى الى نمو كثير من المهن التى لم تكن معروفة خلال الحقبة الاقطاعية • ولقد أوضح كوتريل Cottrell كيف أن استخدام الآلات المعقدة قـد أدى الى زيادة تقسيم العمل وظهور الحاجة الى المتخصصين القادرين على ادارتها • ومن الطبيعى أن يؤدى التخصص الى ظهور مدن متخصصة[٣] • وبزيادة التصنيع طرأت تحولات على البناءات المهنية فى الدول الصـناعية • فمن خـلال تحليل

---

(1) Euogene Litwak; «Occupational Mobility and Extended Family Cohesion»; American Sociological Review; 25; 1960; pp. 9-21.

(2) Peter Townsend; The Family Life of the Old People; New York; Free Press of Glencoe; 1957.

(3) Cottrell; W; Energy and Society; McGraw - Hill; 1955.

اتجاهات البناء المهنى فى الولايات المتحدة فيما بين سنتى ١٩١٠ و ١٩٤٠ توصل ألبرت ريس Reiss الى أن المهن الحضرية قد حققت سيطرة واضحة ، وأن هناك تناقصا ملحوظا فى نسبة العاملين بالزراعة • كذلك فلقد ازدادت أهمية المهن الفنية العليا زيادة كمية ملحوظة ، كما برز دور أصحاب المهن التطبيقية كالفنيين والمختبرين والمحللين • وفيما يختص بالمهارة الفنية ، لوحظ ارتفاع ملحوظ فى مستواها[١] • ولقد حاول بعض الدارسين تفسير زيادة نسبة العاملين فى المهن الحضرية فانتهوا الى أنه بدخول الصناعات الكبيرة الحجم ، أصبح من المحتم زيادة نسبة العاملين فى قطاع الخدمات حتى تتمكن هذه الصناعات من الاستمرار • ولقد أدى ذلك الى ظهور مدن عديدة حول المراكز الصناعية ، مما يعنى طلبا متزايدا على المتخصصين فى شئون الادارة والتعليم والتجارة والمال [٢] • على أن الطابع المهنى الذى يميز المدن الصناعية المعاصرة قد دفع بعض الدارسين الى تصنيف هذه المدن طبقا للنشاطات المهنية السائدة • فبعض المدن تشهد نسبة عالية من الأفراد الذين يعملون فى المهن الفنية العليا كالطب والمحاماة والفن والأدب والصحافة والهندسة ، بينما تشهد مدن أخرى نسبة أقل من الأفراد العاملين فى هذه المهن[٣] • كذلك أشار بعض آخر من الدارسين الى أن المدن المتخصصة تخصصا وظيفيا تشهد تفاوتا ملحوظا فى بناءاتها المهنية ، مما ينعكس بالتالى على بعض الظواهر المصاحبة كالتوزيع العمرى ، ومعدلات الحراك الاجتماعى ، والمؤهلات التعليمية •

ويميل بعض علماء الاجتماع الى ابراز الدور الذى تلعبه المهن الفنية

---

(1) Albert Reiss Jr; «Change in the Occupational Structure of the United States; 1910-1940»; in P. Hatt and A. Reiss; Jr; Cities and Society; The Revised Reader in Urban Sociology; The Free Press of Glencoe; Inc; New York; 1961; pp. 424-431.

(2) Woytinsky; W; and Woytinsky; E; World Population and Production; Twentieth Century Fund; 1953; pp. 423 ff.

(3) P. Gillin; The Distribution of Occupations as a City Yardstick; King's Crown; 1951.

العليا (كالطب ، والمحاماة ، والقضـــاء ، والهندســـة ، والمحاســـبة) داخل المدن الصناعية الحديثة • وهناك خصائص معينة تميز هـــذه المهن لعل أهمها : الاعتماد على المعرفة العلمية المنظمة ، وارتباطها بسلطة فنيـــة واضحة ، واستنادها الى مجموعـــة من القـــواعد الاخلاقية التى تنظم ممارستها ، وأخيرا تعبيرها عن ثقافة خاصة مميـــزة[1] • وفى ضـــوء هذه الخصائص نجد البناء المهنى فى المدن الصناعية يتصف ببعض الملامح التى قد لانلمسها فى مدن الدول النامية على نحـــو ما سنوضح فى موضـــع لاحق • لقد أدت التكنولوجيا الصناعية الى ظهور جماعات من ذوى المهن الفنية العليا يستطيعون القيام بالأعمال المهنية المعقدة التى تتطلب تدريبا طويلا وتعليما نظاميا متخصصا • ويمكننا أن نجـــد استجابة واضحة لذلك داخل النظام التعليمى السائد فى مدن الدول الصناعية • فالمعاهد الأكاديمية والفنية قد أصبحت على درجة عالية من التخصص حتى تستطيع مواجهة احتياجات المجتمع من المتخصصين المدربين ، كما أن التدريب المهنى على العمليات الفنية الجديدة قد أصبح من الامور الضرورية التى يستند اليها النظام الصناعى • ومن الطبيعى أن تتعاون المؤسسات التربوية مع وسائل الاعلام فى نشر ثقافة عامـــة قادرة على مواجهة التجديدات التكنولوجية والتعامل معها •

وتعد التنظيمات البيروقراطية أحد الملامح الأساسية التى تميز المدن الصناعية الحديثة • والواقع أن هذه القضية قد حظيت باهتمام كبير داخل الفكر الاجتماعى الغربى • فعلى سبيل المثال نجد ماركس Marx يؤكد أن التنظيمات البيروقراطية هى مـــن نتاج الحقبة الرأسمالية ، وأنها أحـــد الأساليب التى تستخدمها البرجوازية الرأسمالية فى فرض سيطرتهـــا

---

(1) Talcott Parsons; «The Professions and Social Structure»; in T. Parsons; «Essays in Sociological Theory; The Free Press; Glencoe; 1954; pp. 34-49.

ونفوذها[١] • بيد أن وجهة نظر ماركس قد انطلقت من تصوراته ومفاهيمه النظرية العامة كالاغتراب والصراع الطبقى وحتمية المجتمع الشيوعى • أما ماكس فيبر Weber فقد درس ظاهرة انتشار التنظيمات البيروقراطية وعلى الأخص فى المجتمعات الصناعية الحضرية ، حيث أوضح أنهـا (أى التنظيمات) قد غزت المجالات الاقتصادية والسـياسية والدينيـة فى المجتمعات الغربية ، وأن ذلك قـد أدى الى ظهور المركزية والقواعـد الرشيدة التى تهدف الى تحقيق أقصى درجات الفعالية • كذلك أوضح فيبر أن هناك علاقة قوية بين الرأسمالية والبيروقراطية • فبدون الأخيرة لم تكن الأولى لتستطيع تحقيق التقدم الذى أحرزته فى العالم الغربى • ولقد اهتم فيبر بتحليل خصـائص التنظيمات البيروقراطية المتغلغلة فى البنـاءات الصناعية الحضرية المعاصرة • ومن بين هذه الخصائص : تقسيم العمـل والتخصص مما يزيد من الخبرة والمعرفة الفنية ، وبناء رئاسى هرمى يعبر عن تدرج السلطة ، ونسق مستقر نسبيا من القواعد واللوائح التى تنظم الأعمال والمهام ، وأخيرا الاعتماد على النظرة الموضوعية الحيادية فى معاملة الأفراد[٢] • ويبدو أن التنظيمات البيروقراطية قـد أصبحت أحد العناصر الأساسية المكونة للبناءات الحضرية المعاصرة بغض النظر عن الاعتبارات الايديولوجية • لكن المشكلة قد تنشـأ حينما ننظر الى النتائج الجانبية السيئة التى يؤدى اليها النمو البيروقراطى كالروتين وتعقـد الاجراءات والتركيز على الشـكل دون المضمون • ومن هذه الزاوية يمكننا أن نفهم تنديد ماوتسى تونج « بالبيروقراطية » وربطها بالرأسمالية • وفى كوبـا نجد كاسترو يهاجم « البيروقراطية الاشتراكية » حتى أنه قدوصفها بأنها مرض سحرى لا يعرف له دواء[٣] •

---

(١) السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٢) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضـايا ، المرجع السـابق . وبصفة خاصة الفصـل الرابع بعنـوان « البيروقراطية والسلطة » .

(3) R. Demont; Lands Alive; The Merlin Press; London; 1965.

وليس مـن الصعب علينا التعرف على « البصمات » العميقة التى تركتها التنظيمات البيروقراطية الكبيرة الحجم على مدن الدول الصناعية • اذ تبدو هذه المدن وكأنها تعيش فى « غابات ادارية » وحوشها هم كبار المديرين الرأسماليين • وتسيطر على هـذه « الغابات » روح المنافسة والانجاز والكفاءة والفاعلية والترشيد ، مما دفـع بعض الدارسين الى القول بأن مدن الدول الصناعية قـد أصبحت تتشابه فى كثير من الوجوه بسبب تغلغل هذه التنظيمات البيروقراطية ، حتى أن الخصوصيات الثقافية لهذه الدول لم تعد تلعب دورا هاما فى هذا المجال[1] • وفى هذه المدن تلعب جماعات المديرين والمنفذين والوسطاء والمفاوضين دورا هاما فى تحـديد طابعها • والواقع أن أهم ما تتميز به التنظيمات البيروقراطية فى مـدن الدول المتقدمة (اذا ما قورنت بقريناتها فى الدول النامية) هـو كفاءتها وفعاليتها واستنادها الى أسس رشيدة واضحة • فالبناء الاقتصادى للمدينة فى الدول الصناعية يتحدد فى ضوء تخطيط شامل يقوم على دراسات وتقارير متخصصة عديدة لا تتناول فقط واقع هذه المدينة بل مستقبلها أيضـا[2] • ومن الطبيعى أن ترتبط الفعالية التنظيمية فى مدن الدول الصناعية بارتفاع مستوى المعرفة الفنية وتقدم عملية التقنين سواء فى مجال انتاج السـلع أو توزيعها • ولا يتم ذلك الا اذا وجدت تنظيمات اقتصادية وسياسية تستطيع منح قواعدها واجراءاتها طابعا صوريا • ولا تتعارض عمليـة التقنين مع حقيقة تنوع الأذواق والميول التى تخضع بدورها لدراسـة مستفيضة حتى يمكن مواجهتها • ومن هنا يمكن فهم الـدور الذى تلعبه الدعاية التجارية فى المدن الكبرى ؛ فهى تسهم فى احداث منافسـة بين المنتجين ، كما أنها تساعد المستهلكين على تقبل السلع الجديدة التى تتوصل اليها التجديدات التكنولوجية •

---

(1) Frederick Harbison and Charles A. Myrs; Management in the Industrial World; New York : McGraw-Hill; 1959.

(2) E. Goffman; «The Characteristics of Total Institutions»; in Etzioni; A (ed.) Complex Organizations; Holt; 1961; pp. 312-341.

واذا ما انتقلنا الى مناقشة البناء السياسى للمدن فى الدول المتقدمة ، واجهنا صعوبات عديدة لعل أهمها تنوع (ان لم يكن تعارض) المنطلقات الفكرية والايديولوجية • ويبدو ذلك واضحا اذا ما حاولنا التعرف على البناء السياسى للمدن الكبرى فى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى • لكن ذلك لا يمنعنا من طرح بعض القضايا الهامة التى يمكن أن تخضع لمزيد من الدراسة والتحليل • ففى معظم كتابات علماء الاجتماع الغربيين نلحظ تأكيدا ــ ولو ضمنيا ــ لوجود علاقة بين الديموقراطية من ناحية ، ونمط الحياة الحضرية الصناعية من ناحية أخرى[1] • لكن المشكلة التى تثار هنا تتعلق بالمعنى الذى يشير اليه مفهوم الديموقراطية ذاته • اذ يستخدمه علماء الاجتماع الغربيون للاشارة الى نقطتين : الأولى هى وجود معارضة منظمة فى مواجهة الصفوة الحاكمة ، والثانية هى استناد السلطة الى الاتفاق العام الذى يبديه المحكومون حول القضايا العامة • ولقد أشار سيمور ليبست Lipset الى أن المجتمعات الصناعية وان كانت تؤكد أهمية وجود نسق طبقى مفتوح وضرورة انتشار التعليم الجماهيرى ، الا أن ذلك كله يسهم ــ فى نهاية الأمر ــ فى تدعيم النظام الديموقراطى بأسرة[2] • والواقع أننا لانستطيع قبول ما يذهب اليه بعض علماء الاجتماع عند مناقشة العلاقة بين الديموقراطية والتحضر • فالمدن فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية نشأت وتطورت واكتسبت ثقافتها الحضرية المميزة دون الاعتماد على التصورات الديموقراطية الغربية • واذا ما سلمنا بهذا التحفظ فاننا نستطيع مناقشة الجوانب السياسية الأخرى المميزة للبناءات الصناعية ــ الحضرية الحديثة •

---

(1) Wallace S. Sayre and Nelson Polsby; «American Political Science and the Study of Urbanization»; in Philip Hauser and Leo Schnore; The Study of Urbanization; John Wiley & Sons Inc; 1965; pp. 115-156.

(2) Seymour Martin Lipset; Political Man; Garden City : Doubleday; 1965. Chap. 1.

لعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال إن المدن فى الدول الصناعية تخضع لسيطرة الفنيين والمتخصصين الذين يعملون داخل التنظيمات البيروقراطية ، حتى أننا نستطيع تحديد جماعات تمارس سلطات واضحة لا تتمتع بها جماعات أخرى • وغالبا ما تدافع هذه الجماعات عن مصالحها الخاصة ما استطاعت الى ذلك سبيلا • ولقد أوضح كير Kerr كيف أن المدن الغربية قد أصبحت تضم تنظيمات بيروقراطية تسعى الى ترشيد أهدافها وممارسة أكبر قدر ممكن من السيطرة السياسية[١] • وفى المدن السوفيتية سجل بعض الدارسين وجود جماعات مهنية تكتسب مزيدا من التأثير بفضل التقدم التكنولوجى الذى هو من أهم الأهداف السياسية والاقتصادية • ومن هنا يمكن فهم الدور الذى تلعبه جماعات المهندسين والفنيين والاطباء داخل الحزب الشيوعى السوفيتى وعلى الأخص مستوياته العليا[٢] • وهناك عوامل عامة أدت الى ارتفاع مكانة المتخصصين داخل المدن الصناعية • فالقرارات السياسية قد أصبحت الآن تستند الى الدراسات الفنية التى يقوم بها خبراء متخصصون • ولا يمكن أن نغفل الاشارة الى الدور الذى يلعبه رجال الأعمال وكبار الموظفين الحكوميين داخل البناءات الصناعية ــ الحضرية فى المجتمعات الرأسمالية • فلقد أوضحت بعض الدراسات أن نشاطات رجال الأعمال ليست بمعزل عن النشاطات الحكومية[٣] ، كما أن الدور الذى يؤديه رجال الأعمال من خلال مناصبهم السياسية لا يتعلق فقط بالدفاع عن مصالحهم داخل الدولة بقدر ما يتعلق بالاسهام فى تحديد خطوطها السياسية والايديولوجية • وهناك دراسات عديدة تناولت الأصول الاجتماعية للصفوات الادارية فى المجتمعات

---

(1) C; Kerr et al; Industrialism and Industrial Man; op. cit.

(2) F. Parkin; «Class Stratification in Socialist Societies»; British Journal of Sociology; December; 1969.

(٣) السيد الحسينى ، علم الاجتماع السياسى ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، وانظر أيضا تحليلنا النقدى لكتاب ميلباند « الدولة فى المجتمع الرأسمالى »، المرجع السابق .

الصناعية الغربية • فعلى سبيل المثال أوضح مينود Mynoud أن كبار موظفى الدولة فى فرنسا ينتمون فى الأصل اما الى الطبقة الوسطى ــ العليا أو الطبقة العليا ــ العليا ، وأن ذلك ينطبق على كبار قادة الجيش والقضاة• كذلك لوحظ فى بريطانيا أن كبار الموظفين المدنيين يحصلون عادة على تعليم متميز وينتمون الى أصول طبقية عليا[١] •

وتدفعنا الاعتبارات السابقة الى القاء مزيد من الشكوك حول العلاقة بين الديموقراطية الغربية والروح الصناعية الحضرية • فلقد شهدت ألمانيا خلال الحكم النازى نموا صناعيا حضريا هائلا برغم سيطرة الاتجاهات الديكتاتورية الشمولية[٢] ، كما أن الاتحاد السوفييتى الآن قد حقق درجة عالية من التصنيع والتحضر فى ظل نظام الحزب الواحد القائم على ديكتاتورية البروليتاريا • وعلى الرغم مما قد يردده بعض علماء الاجتماع من أن الاعتبارات التكنولوجية والفنية قد بدأت تسيطر على الاعتبارات السياسية والحزبية داخل الاتحاد السوفييتى ، الا أن الحقيقة تظل باقية وهى ، أن بناء صناعيا حضريا متقدما قد تطور فى ظل تصورات سياسية مختلفة ــ ان لم تكن متعارضة ــ عن تلك الشائعة فى الدول الصناعية الغربية ، مما يدفعنا الى القول بأن نظريات التصنيع والتحضر التى صاغها علماء الاجتماع الغربيون مانزال تفتقد الى الصدق[٣] • ويمكننا توجيه انتقادات مماثلة للفكرة الذاهبة الى ان تعدد مصادر السلطة هو أحد الدعائم التى تستند اليها البناءات الصناعية ــ الحضرية المعاصرة ، وأن الديموقراطيات الغربية هى النمط السياسى الوحيد القادر على تحقيق ذلك[٤] • ان تعدد

---

(1) H. Lasswell et al; The Comparative Study of Elites; New York; 1952.

(2) Rudolf Heberle; Social Movements; New York : Appleton-Century Crofts; 1951; pp. 222-236.

(٣) السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » المرجع السابق .

(4) William Kornhauser; Politics of Mass Society; New York : Free Press of Glencoe; 1959.

مصادر السلطة فى هذه الديموقراطيات لا يسهم فى نمو التصنيع وزيادة التحضر بقدر ما يسهم فى حل كثير من المشكلات الناجمة عن تنوع وتباين الآراء السياسية والتوفيق بين الجماعات المتصارعة المختلفة .

والمحقق أن المدن الصناعية الكبرى تدين فى وجودها ونموها ونفوذها لوسائل الاتصال الجماهيرى كالصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما . اذ يصعب علينا تصور وجود مدينة معاصرة ضخمة تستطيع أداء وظائفها دون وسائل اتصال جماهيرية فعالة . فمن خلال هذه الوسائل تنتقل المعارف والثقافات ، وبواسطتها يتحقق التكامل والتوازن ، وبفضلها يتدعم الاستقرار السياسى فى عالم تسوده التوترات . ومعنى ذلك أن وسائل الاتصال الجماهيرى تؤدى وظائف ثقافية وسياسية وتربوية داخل المدن الكبرى ، حتى أن بعض الدارسين قد ذهبوا الى أن العالم المعاصر قد تقلص وتحول بفضل وسائل الاتصال الحديثة الى « قرية كبيرة » سرعان ما تنتشر فيها المعلومات فور إعلانها[1] . واذا كان يحلو للبعض تأكيد وجود « ثقافة مشتركة » فى مدن الدول الصناعية المتقدمة ، فاننا نقول إن هذه « الثقافة » هى من صنع وسائل الاتصال الجماهيرى . ان وجود هذه الثقافة لهو دليل على التأثير الهام الذى تحدثه هذه الوسائل على سكان المدن الكبرى بخصائصهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتباينة . وخلال السنوات الأخيرة ظهرت فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية كتابات تحاول ابراز بعض النتائج السلبية لسيطرة وسائل الاتصال الجماهيرى على سكان المدن الكبرى على وجه الخصوص . بيد أن النظرة الموضوعية لهذه القضية تتطلب ابراز النتائج الايجابية التى قد تمارسها وسائل الاتصال الجماهيرى على الحياة الحضرية . فاذا كان صحيحا أن هذه الوسائل من خلال موادها المكتوبة أو المسموعة أو المرئية قد أدت

---

(١) مارشال ماكلوهان ، كيف نفهم وسائل الاتصال ، ترجمة خليل صابات ومحمد الجوهرى والسيد الحسينى وسعد لبيب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

الى ظهور صور عديدة من الانحراف الاجتماعى ؛ الا أنها (أى وسائل الاتصال) قد أسهمت فى تدعيم التكامل الاجتماعى بما خلقته من معتقدات وقيم وأذواق مشتركة[١] .

وفضلا عما سبق نجد البناءات الصناعية ــ الحضرية تتميز ببعض العناصر الثقافية المشتركة . فبتقدم التكنولوجيا وزيادة التصنيع ، تحرر سكان المدن الصناعية الكبرى من العوز الدائم والنضال المستمر من أجل الاستمرار فى الحياة . غير أن ذلك قد فرض مطلبا آخر هو ضرورة ملاءمة النظام التربوى أو التعليمى لمقتضيات التطور التكنولوجى . ومن هنا نستطيع فهم ما يذهب اليه البعض من أن « القفزة الصناعية ــ الحضرية » التى حققتها الدول المتقدمة لم تكن لتتم دون حدوث « ثورة تربوية » موازية . ومن أهم معالم هذه الثورة نمو التعليم الفنى المتخصص الذى يضمن مواصلة التقدم التكنولوجى . والواقع أن نظرة عابرة الى الجامعات فى الدول المتقدمة توضح لنا مدى النمو الكمى والكيفى الذى طرأ على التخصصات المختلفة خلال العقود الثلاث الأخيرة[٢] . لقد أصبح البحث العلمى من الاستثمارات الاقتصادية الأساسية التى يجب أن تهتم بها المؤسسات والدول على السواء . ومن الطبيعى بعد ذلك أن تخضع التكنولوجيا الحديثة لمراجعات دائمة حتى أن بعض الدارسين قد بدأوا يسلمون بوجود « ثورة تكنولوجية دائمة » فى الدول الصناعية المتقدمة[٣] . ولا تستطيع هذه الثورة تحقيق انجازاتها دون ظهور « نظرة عالمية » يتبناها الأفراد فى الدول الصناعية . وأحد أبعاد هذه النظرة تبنى التصورات

---

(1) Gideon Sjoberg; «Cities in Developing and Industrial Societies : A Cross Cultural Analysis»; in Philip Hauser and Leo F. Schnore; The Study of Urbanization; op. cit; p. 245.

(2) C. P. Snow; Science and Government; New York : New American Library; 1962.

(3) Bernard Barber and Walter Hirsch (eds.) The Sociology of Science; New York : Free Press of Glencoe; 1962.

العلمية فى فهم وتفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية كالكوارث والأمراض والازمات الاقتصادية ، والاعتقاد فى امكانية التحكم فيها والسيطرة عليها باستخدام المعرفة العلمية المنظمة • ويرتبط بذلك كله شيوع المعايير التى تؤكد النظرة الكلية للأشياء ، واعتبار الانجاز أو الأداء معيارا أساسيا من معايير المكانة الاجتماعية •

وفى ختام هذه المناقشة يمكننا الاشارة الى المكانة التى يحتلها الدين داخل مدن الدول الصناعية المتقدمة • فلقد رأينا فى موضع سابق كيف أن كثيرا من المدن القديمة قد نشأت نشأة دينية ، وأن الدين قد ظل يلعب دورا أساسيا فى تشكيل الطابع الحضرى خلال العصور الوسطى • والواقع أن علماء الاجتماع المعاصرين قد تجاهلوا الى حد كبير موقع الدين داخل المدن الصناعية الحديثة بسبب تأكيدهم الشديد لسيطرة النزعة العلمانية التى تؤكد فى أبسط صورها تفسير الظواهر تفسيرا وضعيا حسيا • ويؤكد هؤلاء العلماء أن القيم الدينية لم تعد تلعب دورا حاسما فى تشكيل البناء الاجتماعى للمدينة الصناعية ، وأن هذه القيم قد أصبحت جزءا من نسق أخلاقى عام[1] • غير أننا لا نستطيع التسليم تماما بهذه القضية ، على الرغم من أنها لا تخلو من الصدق • اذ الملاحظ أن القيم الدينية لاتلعب دورا واحدا فى كل المدن الصناعية ، بمعنى أن الدين يحتل مكانة متميزة فى بعضها دون البعض الآخر • بل ان الاتحاد السوفييتى الذى يتخذ موقفا مناهضا من القيم الدينية قد بدأ يشهد انتعاشا دينيا وعلى الأخص فى مناطقه الجنوبية • ومن هنا نستطيع أن نفهم بعض أبعاد الغزو السوفييتى لأفغانستان فى سنة ١٩٨٠ • كذلك يذهب بعض الدارسين الى أن بعض المدن الأمريكية قد بدأت تشهد مدا دينيا واضحا خلال العقود الأخيرة[2] • وبدون الدخول فى

---

(1) David Moberg; The Church as a Social Institution; Englewood Cliffs; N. J. : Prentice - Hall; 1962; Chap. 15.

(2) Gerhard Lenski; The Religious Factor; Garden City : Doubleday; 1963.

مناقشات تفصيلية حول دور القيم الدينية فى الـدول الصـناعية ، فإننا نستطيع الوصول الى نتيجة أساسية هى ؛ أن الدين مـا يزال يمـارس تأثيراً هاما على سكان مـدن الدول الصناعية ، وان كان هـذا التـأثير أخف حدة من ذلك الذى يمارسه على سكان مدن الدول النامية •

ثانياً ــ المدينة والبناء الاجتماعى فى الدول النامية :

درج علماء الاجتماع الحضرى على النظر الى الدول النامية فى ضوء الخصائص البنائية والثقافية المميزة لهـا • ويستند هؤلاء العلماء فى ذلك الى الخبرات التاريخية المشتركة (وعلى الأخص الاستعمارية) التى مرت بها هذه الدول ، فضلا عن تشابهها فى كثير من الجوانب الاقتصـادية والسياسية والاجتماعية المعاصرة • والواقع أننا لا نستطيع قبـول هذه القضية دون تحفظ • فعلى الرغم من وجوه الشبه العديدة التى يمكن أن نلمسها بين الدول النامية ، الا أن هناك اختلافات عديدة بينها لا نستطيع تجاهلها • من ذلك ــ مثلا ــ التراث الثقافى ، وخبرات التصنيع ، والموارد الطبيعية ، وعدد السكان[1] • ومن هذه الزاوية يجب أن ننظر الى المـدن فى الدول النامية نظرة واسعة رحبة • ففى مصر والهند لعبت المدينـة دورا تاريخيا هاما ، بينما لاتزال فى بعض مناطق أفريقيا تكتسب ملامحها وسماتها الأساسية • لكن ذلك يجب ألا يعوقنا عن مناقشة بعض الجوانب البنائية والنظامية التى تميز المدن فى الدول النامية عموما • وتستند هـذه المناقشة الى تحليل نقـدى للتراث النظرى والدراسـات الواقعيـة التى تناولت المدينة فى مختلف أنحاء العالم النامى •

والنظرة العابرة للمدن فى الدول النامية توحى على الفور بأنها (أى المدن) تمثل حلقة الوصل الأساسية بين هذه الدول من ناحية ، والعـالم الخارجى من ناحية أخرى • فهى تؤدى وظائف سياسية واقتصادية وثقافية

---

(1) Horowitz; I; R; Three World of Development; Oxford University Press; 1966.

تمكنها من اكتساب مكانة متميزة • هى اذن تشكل مجالا لتركز كثير من النشاطات : فيها ترسم السياسات ، وتقام المشروعات الاقتصادية ، وتعيش الصفوة السياسية ، وتنمو المؤسسات الثقافية ، حتى تبدو وكأنها قلب الدولة النابض • وما أن يحدث هذا التركز حتى يزدهر مبدأ « كل الطرق تؤدى الى روما »[١] • وفى معظم الأحيان تؤدى المدن فى الدول النامية (وعلى الأخص الكبيرة الحجم) دورا اقتصاديا واضحا • اذ تضم قطاعا كبيرا من القوى العاملة المدربة وتستقبل جانبا كبيرا من الاستثمارات الاقتصادية • ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك على المناطق الريفية التى تمثل مراكز طرد أساسية للكفاءات الفنية والادارية الهامة • واذا كانت المدن تجذب القوة العاملة المدربة ، فانها تجذب فى نفس الوقت قطاعا لايستهان به من القرويين غير المؤهلين الذين يخرجون من المناطق الريفية بسبب الفقر الشديد متجهين الى المدن يحدوهم بريق الحياة الحضرية[٢] •

واذا كانت المدن الغربية قد نمت فى ظل حركة تصنيع واسعة النطاق فاننا نجد المدن فى الدول النامية تنمو نتيجة لعوامل وظروف مختلفة تماما • اذ أنها لم تكتسب مكانتها نتيجة لنمو اقتصادى ذاتى حققته هذه الدول النامية بقدر ما اكتسبتها نتيجة لتطور اقتصادى موجه لخدمة دولة أو مجموعة من الدول الأجنبية • بعبارة أخرى نمت المدن الأساسية فى الدول النامية لتكون بمثابة روابط قوية من خلالها يمكن توجيه الاقتصاديات القومية لخدمة مصالح القوى الاستعمارية كما هو الحال بالنسبة لمدن جنوب شرق آسيا • ولاتزال هذه المدن تخضع حتى الآن للتوجيه الخارجى، ذلك أنها تمثل حلقة اتصال بين الصفوة المحلية والعالم الخارجى ، أكثر مما

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

(2) Peter Gutkind; Urban Anthropology; Perspectives on Third World Urbanization and Urbanism; Van Gorcum Comp; The Netherlands; 1974; p. 53.

تمثل قاعدة اقتصادية موجهة لخدمة الاقتصاد القومى[١] . والملاحظ أن التطور الاقتصادى والنمو الحضرى فى معظم الدول النامية قد ظل حتى بداية الحرب العالمية الثانية موجها نحو الأسواق الخارجية فى ظل علاقات استعمارية قوية[٢] . يضاف الى ما سبق أن عملية التحضر (بمعنى نمو سكان المدن) فى هذه الدول قد خضعت لعوامل معجلة منها : انخفاض نصيب الفرد من الأرض الزراعية نتيجة للنمو السكانى الهائل الذى فاق حدود الموارد الزراعية ، والمشكلات التى أحدثتها الحرب العالمية الثانية ، مما أدى الى هجرة اللاجئين الى المدن الكبرى ، فضلا عن العوامل الأخرى التى دفعت الفلاحين دفعا الى هجرة قراهم بحثا عن فرص عمل أفضل[٣] .

ويميل بعض الدارسين الى استخدام مصطلح « التضخم الحضرى » overurbanization للاشارة الى بعض المشكلات الحضرية العامة التى تواجهها معظم الدول النامية . ومعنى ذلك ان مدن هذه الدول لاتمتلك المقومات الاقتصادية التى تضمن لسكانها مستوى معيشى مماثل لما هو قائم فى مدن الدول المتقدمة . لذلك فان على الدول النامية أن تتبنى برامج تنموية شاملة تتناول المناطق الريفية والحضرية على السواء . اذ أن كثيرا من المشكلات الحضرية قد تستعصى على الحل ما لم تواجه المشكلات الريفية مواجهة حاسمة . والواقع أن من الصعب فهم كثير من المشكلات الحضرية التى تواجهها الدول النامية دون التعرف على الظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية (التاريخية والمعاصرة) السائدة فيها . وتبدأ هذه

---

(1) A. Gunder Frank; Latin America : Underdevelopment or Revolution; Monthly Review Press; 1969.

(٢) فيليب هاوزر ، « مشكلات التحضر السريع » ترجمة السيد الحسينى ، محمد الجوهرى وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٩١ — ١١٩ .

(٣) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية : تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » ، السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، ص ص ٣٧٥ — ٤١٨ .

المشكلات برغبة هذه الدول فى تحقيق تنمية اقتصادية ـ اجتماعية واسعة المدى • ويبدو التصنيع ـ فى نظرها ـ وكأنه الوسيلة الأساسية التى يمكن من خلالها تجاوز التخلف الاقتصادى ـ الاجتماعى • بيد أن هناك مشكلات عديدة ما تلبث أن تفرض وجودها • من ذلك انخفاض مستوى الانتاجية ، وقلة المدخرات ، وأولوية الانفاق على الزراعة أو الصناعة ، ثم توزيع الاستثمارات على كل من قطاعى الخدمات والانتاج • وعلى الرغم من أن هذه المشكلات تبدو ملحة فى كل من القرى والمدن ، الا أنها تبدو أكثر الحاحا فى الأخيرة • ذلك أن مدن الدول النامية تفتقر الى الهياكل الأساسية التى تضم مختلف الخدمات إبتداء من أنابيب المياه حتى بناء المساكن • وفى كثير من الأحيان قد يقف صانع القرار السياسى فى الدول النامية حائرا مترددا أمام اختيار اقتصادى صعب : إما تدعيم المدن بالخدمات الأساسية أو تزويد القرى بأدوات أو مستلزمات الانتاج الزراعى •

وفضلا عن ذلك تواجه الدول النامية مشكلة تحديد مواقع الصناعات وذلك بسبب الارتفاع فى معدلات التحضر • اذ أن المدن الكبرى غالبا ما تمارس سيطرة على المراكز الحضرية الصغيرة • وبسبب قلة الاستثمارات تضطر حكومات الدول النامية الى تبنى سياسة مركزية عند اقامة المشروعات الصناعية التى تعتمد على الهياكل الأساسية للمدن القائمة بالفعل كالمواد الخام ومصادر الطاقة والقوة العاملة والسوق[1] • ومعنى ذلك أن المدن الكبرى فى الدول النامية تميل فى نهاية الأمر الى اتخاذ طابع « طفيلى » ، مما يؤدى الى اعاقة تنمية المدن الصغرى والمناطق الريفية عموما[1] • ولقد أوضحت

---

(1) Shanti Tangri; «Urbanization; Political Stability; and Economic Growth»; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Culture Change; John Wiley & Sons; New York; 1971; pp. 515. 526.

(١) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية » ، المرجع السابق .

تجارب بعض الدول النامية أن مشروعات الاصلاح الزراعى الناجحة قد أسهمت فى الحد من مشكلة الفقر فى المناطق الريفية ورفعت بالتالى من مستوى الانتاجية الزراعية مما أدى فى نهاية الأمر الى انخفاض معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • ويبدو أن هناك اتفاقا ملحوظا بين عدد كبير من علماء الاجتماع حول تأثير التحضر على بعض المتغيرات الاقتصادية ومستويات المعيشة والمدخرات ورؤوس الأموال • وعلى الرغم من أن ما يقال حول ذلك قد يتخذ طابعا انطباعيا ، الا أن هناك شواهد متزايدة تشير الى أن سكان مدن الدول النامية يحصلون على دخول نقدية أعلى من سكان المناطق الريفية • كما أن التحول من اقتصاد الاعاشة الى الاقتصاد النقدى يسهم ــ الى حد كبير ــ فى تشجيع الادخار • وفضلا عن ذلك لوحظ أن التحضر فى الدول النامية يؤدى الى تغيير ملحوظ فى الأنماط الاستهلاكية ، حيث يقل الانفاق على الطعام ويزداد الانفاق على الترويح والتعليم والمواصلات والخدمات وايجارات المساكن[٢] •

ومن بين النتائج المترتبة على « التضخم الحضرى » فى الدول النامية تدهور البيئة الحضرية ذاتها • ويبدو ذلك أوضح ما يكون فى نمو الأحياء المتخلفة وتضخم أحجامها ، ونقص الخدمات الحضرية بما فى ذلك الاسكان والمواصلات والمنافع العامة • يضاف الى ذلك سوء استغلال الأرض ، وارتفاع معدلات كثافة السكان ، وقلة الخدمات التعليمية والترويحية • ومن الطبيعى أن تمارس هذه الظروف البيئية القاسية ضغطا شديدا على حكومات الدول النامية مما يدفعها الى تخصيص جانب كبير من استثماراتها لتحقيق مشروعات التنمية الحضرية ، مما يؤثر بالتالى على الاستثمارات الانتاجية • وفى كثير من الأحيان نجد أسر الطبقة الوسطى تحقق أقصى فائدة ممكنة من هذه المشروعات ، بينما لا تحصل أسر الطبقة الدنيا على

---

(2) Wilbert E. Moore; Social Change; Englewood Clifts. N. J. Prentice-Hall; Inc; 1963.

نصيبها الضرورى منها[1] • وهنـاك صعـوبات عديدة تكتنف التخطيط الحضرى فى الدول النامية من بينها الهجرة المتدفقة المستمرة من المناطـق الريفية الى المناطق الحضرية ، وما يرتبط بذلك من مشكلات اجتماعية ، فضلا عن عدم كفاءة الهياكل الأساسية للمـدن •

وخلال السنوات الأخيرة أبدى عدد كبير من علماء الاجتماع والسكان والانثروبولوجيا اهتماما كبيرا بالخصائص السكانية المميزة لمـدن الدول النامية كالعمر والنوع والتعليم والمهنـة والدخل[2] • وعلى الرغم من أن الشـواهد الاحصـائية المتعلقة بهـذه الخصـائص مانزال ضـئيلـة ومتنـاثرة ، الا أن علمـاء الاجتمـاع قد توصـلوا الى بعض الأحكام العـامة التى مانزال بحـاجة الى التحقق الواقعى • ففيمـا يتعـلق بأعمار سكان الحضر فى الدول النامية ، اتضح أن نسبة عالية من السكان تقع فى الفئة العمرية الشابة (١٥ ــ ٤٥) ، برغم وجود استثناءات عديدة لذلك • وتفسير ذلك أن معظم كبـار السن من القرويين لايهاجرون الى المدينة ، وانما يميلون الى البقاء فى القرية • كذلك فان المناطق الحضريـة تتميز بزيادة عدد الذكور على الاناث فى معظم الدول النامية باستثناء أمريكا اللاتينية التى يزداد فيها عدد الاناث على عدد الذكور فى مناطقها الحضرية • وربما أمكن تفسير ذلك فى ضوء مرحلة التطور الاجتماعى ــ الاقتصـادى التى تمر بها دول أمريكا اللاتينية والتى تميزها عن غيرها من الدول النامية • وفيما يتعلق بمستويات التعليم فى مدن الدول النامية نجد تفاوتا ملحوظا • فبينما ترتفع نسبة التعليم ارتفاعا ملحوظا فى بعض هذه المدن ، نجدهـا تنخفض انخفاضا كبيرا فى البعض الآخر • كما أننا نجـد تفاوتا ملحوظا بين هذه المدن فيما يتعلق بنسبة الحاصلين على مؤهلات جامعية عليـا • وهناك بالاضافة الى ذلك سمات مهنية شائعة فى مـدن الدول النامية • فكثير

---

(1) Lloyd Rodwin; Nations and Cities. Houghton - Mifflin; 1970.

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، المرجـع السابق ، ص ١٥٢ •

من المهاجرين الريفيين الى المدن يفتقرون الى المهارات الضرورية التى تمكنهم من الدخول الى الحياة المهنية المنتظمة • كما أن هناك نسبة عالية من العاملين فى المهن « الهامشية » التى لا تسهم بشكل مباشر فى الانتاج القومى بسبب طابعها الطفيلى[١] • وبرغم الظروف القاسية التى يتعرض لها العمال الصناعيون الحضريون فى الدول النامية ، فلقد أوضحت بعض الدراسات قدرة هؤلاء العمال على التكيف مع الآلات الجديدة واكتساب كثير من المهارات الفنية عن طريق المحاكاة • وبالاضافة الى ذلك هناك تفاوت ملحوظ بين أجور العمال الفنيين والعمال غير الفنيين فى مدن الدول النامية • فبينما يحصل الأولون على دخول عالية نسبيا ، يحصل الأخيرون على دخول لا تكاد تمكنهم من الوفاء بالمتطلبات الأساسية للحياة •

ومن بين المشكلات السكانية التى تواجهها مدن الدول النامية تبدو الهجرة الريفية ــ الحضرية أكثرها حدة وخطورة • وعند تفسير هذه المشكلة نجد بعض العلماء يؤكدون دور القرية « كعامل طارد » للريفيين ، بينما نجد البعض الآخر يبرز دور المدينة « كعامل جاذب » للمهاجرين • ويبدو أن تأكيد أى من هذين الدورين يرجع الى الاهتمامات العلمية للدارسين أكثر مما يرجع الى الأهمية النسبية لكل منهما • فعلى سبيل المثال نجد عاطف غيث فى دراسته على قرية مصرية يفسر الهجرة الريفية ــ الحضرية فى ضوء اختلال علاقة السكان بالأرض وزيادة صلات القرية بالقرى المجاورة وبالمدينة والحكومة • كما أشار الى ان القوانين المنظمة للانتاج الزراعى والحياة الاجتماعية بوجه عام (كالزواج والطلاق والجندية والضرائب والمواليد والوفيات) قد زادت من تدخل المدينة فى شئون القرية [٢] • والواقع أن من الصعب تناول مشكلة الهجرة الريفية ــ الحضرية دون تبنى منظور تاريخى بنائى شامل • حينئذ لن يكون اهتمامنا منصبا على ابراز

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) عاطف غيث ؛ القرية المتغيرة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

دور القرية أو المدينة فى هـذه الهجرة ، بقدر ما يتركز على العلاقـات البنائية (التاريخية والمعاصرة) التى تربط بينهما • لكن ذلك لا يعفينا من الاشـارة الى بعض العوامل الطاردة والجاذبة المؤثرة على « الخروج الريفى » و « النمو الحضرى »[1] • فمن بين العوامل الطاردة نجد التضخم السكانى فى المناطق الريفية وما يتصل بذلك من ضآلة فرص الحصول على الأرض التى يمكن فلاحتها والتعيش منها • كذلك فان الطبيعة الموسمية للعمل الزراعى قد تؤدى الى فترة فراغ بين زراعة المحصولات وحصدها ، مما يتيح فرصة الهجرة الى المدينة • ويبدو أن احساس القرويين بالحرمان النسبى مما هو متاح فى المدينة من خدمات قد يكون سببا فى الهجرة الى المدينة خاصة بالنسبة لمن ألفوا الحياة الحضرية ولو لفترة قصيرة • وقـد تكون فترة الخدمة العسكرية ظرفا مهيئا يشجع الفرد على الاقامة فى المدينة بعد أن يكون قـد خبر حياتها • أما العوامـل الجاذبة للقرويين فعديدة ومتنوعة • فالمدينة بالنسبة لهم هى الكهرباء ، والمياه الجارية ، والطرق المرصوفة ، والجامعات ، والمستشفيات وكل ما يتصل بمقومات الحيـاة الحضرية •

وهناك خلاف كبير بين علماء الاجتماع حول أنماط الهجرة الريفية ــ الحضرية فى الدول النامية[2] • فثمة شواهد تشير الى أن الهجرة تتـم أولا من المناطق الريفية الى المدن الصغرى وصـولا الى المدن الضخمة العملاقة ، بينما نجد شواهد مناقضة تشير الى أن الهجرة تتم مباشرة من القرى الى المدن الكبيرة دون المرور بالمراكز الحضرية الوسيطة • كذلك توضح بعض الدراسات أن معدل هجرة الذكور الى المـدن الافريقيـة والآسيوية أعلى من معدل هجرة الاناث ، وأن معدلات الهجرة الموسمية

(1) G. Germani; «Migration and Acculturation»; in p. Hauser (ed.): Handbook for Social Research in Urban Areas (Paris; 1965); pp. 159-178.

(2) P. Mayer; «Labour Migrancy and the Social Network». in J. F. Holleman (ed.) Problems of Transition, London; 1964; pp. 21-34.

ترتفع بالنسبة للعمال الزراعيين الموسميين وعمال التعدين ، وأنهم سرعان ما يعودوا الى قراهم بعد قضاء فترة معينة داخل المدينة[١] • وهناك تحليلات حديثة تميل الى رفض بعض التصورات الشائعة المتصلة بالآثار الضارة الناجمة عن إرتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • فالشواهد الاحصائية التى تتناول البناء السكانى لمدن الدول النامية تشير الى أن الزيادة الطبيعية هى المصدر الأساسى للنمو السكانى الحضرى وعلى الأخص فى دول أمريكا اللاتينية ، مما يعنى تقلص دور الهجرة الريفية ــ الحضرية بوصفها مصدرا أساسيا للنمو الحضرى • وهناك شواهد أخرى توضح أن المهاجرين من المناطق الريفية الى المدن لا يفتقرون الى المؤهلات والمهارات التى تمكنهم من الالتحاق بالمهن الملائمة ، وأن تدفق المهاجرين على المدن لا يفرض أعباء جديدة على الهياكل الأساسية لو ان الحكومات تبنت سياسات حضرية رشيدة تستجيب بشكل مباشر لكل المشكلات البيئة[٢] • ومن هنا يذهب بعض العلماء الى أن معدلات التنمية الريفية تلعب دورا كبيرا فى تحديد النمو الحضرى • ففى الصين وكوريا الشمالية بذلت الحكومتان جهودا كبيرا لتنظيم الهجرة الريفية ــ الحضرية من خلال تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة للمناطق الريفية المترامية • ومن بين أبعاد هذه التنمية تنفيذ عدد من مشروعات الاصلاح الزراعى ، واقامة المجمعات الزراعية ــ الصناعية ، ودعم شبكات المواصلات وتنويعها ، فضلا عن رفع مستوى التكنولوجيا الزراعية المستخدمة •

وفى ضوء هذه الاعتبارات والقضايا النظرية يمكننا مناقشة الخصائص

---

(1) A. W. Southall; «Determinants of the Social Structure of African Urban Population with Special Reference to Kampala (Uganda)»; in D. Forde (ed.); Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahra (Paris; 1956); pp. 557-78.

(٢) البنك الدولى ، تقرير عن التنمية فى العالم ، واشنطن ، المطبوعات العربية ، باريس ، ١٩٧٩ ، ص ٨١ .

البنائية والثقافية المميزة للحياة الحضرية فى الدول النامية • والواقع أننا لا نطمح فى استعراض الدراسات والكتابات التى تناولت هـذه الخصائص بقدر ما نطمع فى تقديم تحليل مركز وشامل لبعض المظاهر الاجتماعية والثقافية كالبناء المهنى ، والعلاقات الشخصية والجماعية ، والحراك الاجتماعى ، والنظام السياسى ، والحياة الأسرية • واذا كانت مناقشتنا تتعلق أساسا بالحياة الحضرية ، فاننا سنضطر فى بعض الأحيان الى ابراز الاختلافات الريفية ــ الحضرية • ان كثيرا من عناصر الثقافة الحضرية فى الدول النامية قد تفقد معناها دون وضعها فى اطار ثقافى أوسع ، مما يفرض علينا ضرورة الاهتمام بثقافة الفلاحين باعتبارها أحد مصادر الثقافة الحضرية[1] • ولسوف يتضح لنا الى أى مدى تتسم الحياة الحضرية فى الدول النامية بالتعقيد الشديد ، على الرغم مما يذهب اليه بعض علماء الاجتماع من أن المدينة فى العالم الثالث متماثلة البناء ، متشابهة الوظائف • وهنا يبدو صدق ما قاله كيوبر Kuper فى معرض مناقشاته لظاهرة التحضر فى أفريقيا : « يجب دراسة المدن فى الدول النامية بوصفها وحدات بنائية متنوعة لا يمكن فهمها الا فى ضوء التحليل العلمى المنظم »[2] •

ولنبدأ أولا بمناقشة البناء المهنى الحضرى فى الدول النامية • ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هـذا المجال إن كثيرا من هذه الدول قد شهدت بناءات مهنية حضرية ضخمة نتيجة لحصولها على الاستقلال السياسى ، وانجازها كثير من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية • ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى نمو التعليم (وعلى الأخص الفنى) ، وظهور مهن جديدة لم تكن معروفة من قبل • على أن أهم خاصية تميز هذه المهن هى الأهمية

---

(١) سوتى أورتز ، « ثقافة الفلاحين » ترجمة السيد الحسينى ، فصل مترجم فى : دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، المرجع السابق ، ص ص ٣١٩ ــ ٣٤٠ .

(2) L; Kuper (ed); Pluralism in Africa; Berkeley; 1969; p. 13.

الاجتماعية والسياسية المرتبطة بها • وهناك شواهد حديثة متنوعة تشير الى أن المهن فى مدن الدول النامية تتفاوت فى مكاناتها الاجتماعية ، وأنها تتخذ شكلا هرميا يبدأ من المهن الفنية العليا فى القمة حتى المهن اليدوية فى القاع[١] • وعندما أجريت دراسات عن أنساق المكانة فى بعض المدن الافريقية ، اتضح تباين ملحوظ فيما يتعلق بتقويم الأفراد لمكانات بعضهم البعض ، كما أنهم لا يتبنون معايير موضوعية يمكن من خلالها تحديد موقع المهنة داخل البناء المهنى الكلى • وقد يوحى لنا ذلك بأن المهنة فى المدن الافريقية لاتعبر بدقة عن المكانة الاجتماعية ؛ وان كنا نجد شواهد مناقضة تؤكد أن الموظفين يحتلون مكانة أعلى من العمال اليدويين• وعلى أية حال فان بامكاننا تفسير هذا الموقف فى ضوء مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى التى تمر بها الدول النامية واختلاف أنساق المكانة من دولة لأخرى •

ويميل بعض علماء الاجتماع عند دراسة البناء الطبقى فى الدول النامية الى ابراز الجمود الذى ينطوى عليه هذا البناء ، مما يحول دون تحقيق الحراك الاجتماعى[٢] • ويستند هؤلاء العلماء فى ذلك الى أن المكانة الاجتماعية فى هذه الدول تتحدد فى ضوء معايير مكتسبة كالعرق والطبقة الاجتماعية ولون البشرة ، بينما تعتمد المكانة الاجتماعية فى الدول الصناعية المتقدمة على معايير الانجاز والأداء • والواقع أن هذه القضية تفتقر الى الصدق فى ضوء نتائج كثير من الدراسات المعاصرة[٣] ، أى انها

---

(1) Clyde Mitchell; «Aspects of Occupational Prestige in a Plural Society»; in P. Lloyd (ed.); The New Elites of Tropical Society; London; 1966; pp. 256-271.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : محمد الجوهرى ، « البناء الطبقى فى الدول النامية » ، السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق .

(٣) طرحت باستفاضة وجهات نظرى حول هذه القضية فى دراستى عن « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية ». انظر: السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق .

تعانى من قصور واضح اذا ما أخذنا فى اعتبارنا تجارب التنمية فى بعض الدول النامية[١] • وهناك دلائل تشـــير الى أن كثيرا من الدول النامية تتجه بالفعل نحو توسيع نطاق الطبقة الوسطى الحضرية وذلك بتشجيع الحراك الاجتماعى الصاعد • بيد أن المشكلة الأساسية التى تواجه هـــذه الدول تتمثل فى ظهور عقبات عديدة تحـــول دون تحقيق الحراك الاجتماعى على نطاق واسع • من ذلك ــ مثلا ــ ضيق نطاق البناء المهنى وعدم تنـــوع عناصره ، فضلا عن وجود عناصر اجتماعية وثقافية قد تتصارع فى بعض الأحيان من متطلبات النشاطات الصناعية والتجـــارية • ولقـــد أوضحت دراسة حديثة أنه برغم ادخال صناعات متطورة فى دولة قطـــر ، الا أن التصنيع لم يحدث تأثيرا واضحا على سلوك العمال وقيمهم[٢] • يضـــاف الى ذلك ما تعانى منه المدن فى كثير من الدول النامية من قلة رؤوس الأموال الضرورية للاستثمار ، مما يحول دون ظهور فرص مهنية جـــديدة • ومن الطبيعى أن تؤثر هذه العوامل على معدلات الحراك الاجتمـــاعى فى كثير من مدن العالم الثالث • ومع ذلك يظل صحيحا أن المناطق الحضرية تمثـــل مجالا واسعا لتحقيق الحراك الاجتماعى اذا ما قورنت بالمناطق الريفية • فلقد أوضحت بعض الدراسات أن فرص القرويين فى تحقيق الحـــراك الاجتماعى داخل القرية تكاد تكون معدومة ، مما جعلهم يربطون بين المدينة والنجاح المهنى[٣] •

ويبدو أن التعليم واكتساب المهارات الفنية هما أكثر العوامل المؤدية

---

(١) السيد الحسينى ، « التقليد والتحديث فى علم الاجتماع المعاصر مع اشارة خاصة لمجتمعات الخليج العربى » ، الندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعـــة البصرة ، الكتاب الاول ، ١٩٧٩ ، ص ص ٤٢٥ ــ ٤٤٩ .

(٢) جهينه العيسى ، التحديث فى المجتمع القطرى ، دار كاظمـــة للنشر ، الكويت ، ١٩٧٩ .

(3) J. Gibbs; (ed.); Peoples of Africa; New York; 1965; p. 42.

الى الحراك الاجتماعى فى مدن الدول النامية ، على الرغم من أن ذلك كله يتوقف على نمط التنمية الاقتصادية ومدى اتساعها • اذ نلحظ أن نمو المناطق الحضرية لا يؤدى ــ بالضرورة ــ الى زيادة معدلات الحراك الاجتماعى الا بقدر محدود • وأحد الأسباب المفسرة لذلك أن النمو الصناعى والتجارى فى المدن يفوق ــ عادة ــ معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية • ففى الأولى ارتبط التصنيع بنمو المدن ارتباطا ضروريا وطبيعيا على نحو ما رأينا فى موضع سابق • واذا كانت مشروعات التصنيع فى الدول المتقدمة قد أدت الى زيادة معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مما أدى الى ظهور مشكلات حادة بدت بوضوح فى كثير من الكتابات السوسيولوجية التى تناولت هذه الفترة الزمنية ، الا أن التقدم العام الذى أحرزته هذه الدول قد مكنها من مواجهة المشكلات الحضرية بقدر كبير من النجاح • والواقع أننا لا نجد نظيرا لهذه الظروف فى الدول النامية الآن • فالتحضر الذى تشهده لا يصاحبه تصنيع مقابل • ولنا أن نتوقع بعد ذلك ضيق نطاق البناء المهنى الحضرى فى هذه الدول على نحو لايسمح بحدوث معدلات عالية للحراك الاجتماعى[1] • ومن هنا يمكننا فهم طبيعة الحراك الذى يحققه المهاجرون الى مدن الدول النامية • اذ أنه لا يتصل بجوهر البناء الطبقى بقدر ما يتعلق بقدرة بعض الأفراد على الاستجابة لمتطلبات البناء الصناعى ــ الحضرى •

ومن الصعب فهم البناء المهنى الحضرى فى الدول النامية دون التعرف على بعض العناصر التى تشكل معالم النظام السياسى الذى يؤثر تأثيرا بالغا على الظواهر الحضرية • وربما كانت الهجرة من القرية الى المدينة أول علامة على تغير نمط السلطة التى يخضع لها المهاجر • ففى ظل الحياة القروية يخضع الفرد لسلطات تقليدية تشتق هيبتها من الدين والقرابة

(1) A. H. Whiteford; Two Cities of Latin America : A Comparative Description; New York; 1964.

والعرف ، لكنه ما يلبث أن يخضع فى ظل الحياة الحضرية لسلطات مدنية تستمد قوتها من القانون الوضعى • ولقد أوضح ابشتاين Epstein فى دراسته عن تاريخ الحركة النقابية فى زامبيا كيف أن عمال التعدين كانوا يلجأون — فى بداية حركة التصنيع — لرؤساء القبائل ليكونوا بمثابة وسطاء للتفاوض مع الشركات الأجنبية من أجل رفع أجورهم وتحسين ظروف عملهم • وعلى الرغم من أن رؤساء القبائل قد أدوا مهامهم بنجاح فى معظم الحالات ، الا أن نمو الروح الصناعية بين العمال الافريقيين قد دفعهم لتكوين نقابات تستطيع الدفاع عن مصالحهم أمام الشركات الأجنبية • ومن النتائج المترتبة على ذلك تقلص نفوذ رؤساء القبائل وظهور القادة النقابيين كقوة سياسية مؤثرة[١] • وفى بعض الدول النامية التى تتميز بتباين عرقى ، نجد الجماعات العرقية المختلفة تلعب أدوارا سياسية متباينة داخل المدن • فلقد أشار كينيث ليتيل Little الى الروابط العرقية التى تتكون داخل المراكز الحضرية والتى تتألف أساسا من المهاجرين من المناطق الريفية ، وكيف أن أفراد هذه الروابط يسهمون فى مساعدة المهاجرين الجدد على التكيف مع الحياة الحضرية الجديدة[٢] • كذلك فلقد توصلت جانيت أبولغد الى نتائج مشابهة فى دراستها عن المهاجرين من المناطق الريفية الى مدينة القاهرة[٣] •

ويتعين علينا الاشارة هنا الى الأهمية السياسية للبناء الحضرى فى الدول النامية • فالمدينة أو العاصمة — ان شئنا الدقة — هى مقر الحكومة والأجهزة التنفيذية الأساسية ، كما أنها موطن الاحزاب السياسية والصحافة والاذاعة وكل وسائل الاتصال الجماهيرى • ومن هنا يتضح

---

(1) A. L. Epstein; Politics in an Urban African Commuinty; Manchester; 1958.

(2) Peter Gutkind; Urban Anthropology; op. cit; p. 96.

(3) Janet Abu-Lughod; «Migrant Adjustment to City Life : The Egyptian Case»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 376-388.

المغزى السياسى للعاصمة ، اذ أنها مصدر التوجيه أو التثقيف السياسى • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن كثيرا من القادة السياسيين فى الدول النامية ينتمون الى أصـــول حضرية • وعلى مســـتوى الطقـــوس والمراسيم فان الزعماء السياسين الاجانب الذين يقومون بزيارة لدولـــة نامية يتخذون من العاصمة مقرا لهم ، لأنها تبدو الواجهة السياسية التى من خلالها يرى العالم هذه الدولة • وفى الدول النامية التى تشهد انقلابات سياسية متعاقبة ، يشـــعر سكان مدنها بالأهميـــة التى تحتلها العـــواصم السياسية ، اذ تبدو وكأنها ثكنات عسكرية • وهذا يعنى أن القوة السياسية لم تعد حكرا على السياسيين ، ذلك أن الجيش ــ فى غيبة الديموقراطية ــ يستطيع أن يحسم أى صراع حول السلطة السياسية[1] •

وخلال السنوات الأخيرة حاول بعض علماء الاجتماع التعرف على الدور السياسى الذى يمكن أن يلعبه فقراء المدينة • ويبدو أن الاضطرابات السياسية التى شهدتها بعض مدن أمريكا اللاتينية ومواقف الجماعات الفقيرة منها ، قد دفعت بعض الدارسين الى تحليل المضمون السياسى « للفقـــر الحضرى » • فلقد أوضحت جوان نيلسون Nelson فى دراسة لها عن فقراء المدن ودورهم فى احداث التفكك (أو التكامل) السياسى فى دول أمريـــكا اللاتينية ، أن المهاجرين الجدد الى المدن وكذلك الفقراء لا يلعبون دورا واضحا ومباشرا فى احداث الاضطرابات السياسية • بل ان خبرات الدول الصناعية المتقدمة تشير الى أن فقراء المدن لم يلعبوا خلال تاريخهم دورا سياسيا هاما • ومع ذلك يتعين علينا الاشارة الى الاختلاف الكبير بين الظروف الديموجرافية والاقتصادية والسياسية التى مرت بها الدول الأوربية خلال القرن التاسع عشر ، وتلك التى تمر بها الدول النامية الآن • ان مثل هـــذا الاختلاف قد يجعلنا نذهب الى أن الفقراء الحضريين فى أمريكا اللاتينية

---

(1) Lucian Pye; «Armies in the Process of Political Modernisation; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Social Change; John Wiley & Sons; New York; 1971; pp. 277 ff.

وشمال افريقيا وآسيا قد يلعبون دورا هاما فى تحديد السياسات القومية والمحلية ، على الرغم من أن قرنائهم فى الدول الأوربية لم يفعلوا ذلك من قبل[١] • والواقع أن وجهة نظر نيلسون ماتزال بحاجة الى مزيد من التحقق والتأمل • فثمة شواهد متناثرة تشير الى ان فقراء المدن فى بعض الدول النامية قد يلعبون دورا سياسيا ولو بطريق غير مباشر ، مما قد يشكل ضغطا على الحكومات عند رسم برامجها الاقتصادية والسياسية • ففى لاجوس ونيروبى حاولت الجماعات الحضرية الفقيرة اقامة روابط وتنظيمات تعبر عن قضاياها أمام القادة السياسيين • وعلى الرغم من أن هذه الروابط لا تتمتع بسلطة سياسية قوية ، الا أن الأجهزة السياسية المركزية لا تستطيع التقليل من شأنها أو تجاهلها • ولقد أشارت دورثى نيلكن Nelkin الى الدور الذى لعبه الفقراء والعاطلين فى المدن خلال فترة الاطاحة برئيس الكونغو برازفيل فى سنة ١٩٦٣[٢] •

وهناك خلاف بين علماء الاجتماع حول الاتجاهات السياسية للمهاجرين الجدد الى مدن الدول النامية • فعلى الرغم من أن جوان نيلسون Nelson فى دراستها التى أشرنا اليها قبل قليل قد أوضحت ميل هؤلاء المهاجرين الى تبنى آراء وأفكار سياسية راديكالية ، الا أن فاينر Weiner قد أشار فى دراسة له على مدينة كلكتا الى « أن المهاجرين ليسوا عرضة لتبنى الأفكار السياسية المتطرفة وتأييد الجماعات المعارضة • فاذا كان لساكن المدينة أن يبدى معارضة أو رأيا سياسيا حرا فلابد وأن يتكامل مع المدينة قبل أن يتوصل الى هذا الرأى • كذلك فان الهيئات المختلفة التى يتعامل معها المهاجر (كالأحزاب السياسية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية) تعمل على ربطه بالمدينة والحيلولة دون مشاركته فى أعمال العنف السياسى أو تبنى

---

(1) Joan Nelson; «The Urban Poor : Disruption or Political Integration in Third World Cities» World Politics; XXII; 1970; pp. 393-414.

(2) Peter Gutkind; Urban Anthropology; op. cit; p. 100.

أفكار سياسية راديكالية »[١] • ومع ذلك نجد فاينر يقول فى موضع آخر : « اننا لا نستبعد أن يؤدى طوفان الهجرة من الريف الى المدن المزدحمة الى مشكلات عديدة ، مما قد يساعد على ظهور بعض حالات العنف • فبزيادة عدد المهاجرين تزداد الخدمات الحضرية سوءا وتقل فرص العمل المتاحة »[٢] • والواقع أن اختلاف علماء الاجتماع حول الابعاد السياسية للتحضر فى الدول النامية يعود الى تباين منطلقاتهم الفكرية • فالذين يتبنون التصور الماركسى يبالغون فى الدور السياسى الذى يمكن أن تلعبه الجماهير الحضرية الفقيرة ، بينما نجد الذين يتبنون التصور البنائى ــ الوظيفى يؤكدون أهمية التكامل الاجتماعى الحضرى وابراز الأساليب والوسائل التى من خلالها يحقق البناء الحضرى تماسكه وقدرته على الاستمرار فى الوجود[٣] • ان تبنى التصور الماركسى فى تفسير هذا الموقف يعنى ــ بداءة ــ أن كثيرا من مدن الدول النامية تشهد قدرا كبيرا من الاستياء السياسى ، وأن ذلك يمثل أحد العوامل التى قد تسهم فى ظهور انتفاضات وتمردات سياسية • بيد أن الواقع الملموس يشير الى عكس ذلك • فلم يحدث حتى الآن أن حاولت الجماهير الحضرية الفقيرة ــ وحدها أو بالتعاون مع قطاعات حضرية أخرى ــ القيام بدور سياسى حاسم فى أى دولة من دولة العالم ، على الرغم من التأثير الذى تمارسه هذه الجماهير على القرارات السياسية[٤] • واذا كان لنا أن نحسم هذه القضية ، فاننا

---

(1) Myron Weiner; «Urbanization and Political Protest»; Civilizaitons; XVII; 1967; pp. 44-52.

(2) Ibid; p. 51.

(٣) يمكننا ان نشير هنا الى وجهتى نظر متعارضتين تؤكد الأولى الفهم الماركسى لدور فقراء المدينة فى احداث التغير السياسى ، وتنطلق الثانية من المفاهيم البنائية الوظيفية فى دراسة التكامل الحضرى انظر :

Andre Frank; «Instability and Integration in Urban Latin America; in Andre Frank; Latin America : Underdevelopment or Revolution; New York; 1969; pp. 248-268; Gideon Sjoberg; «Cities in Developing....» in p. Hauser and L. Schnore; op. cit.

(4) Shanti Tangri; «Urbanization; Political Stability and Economic Growtb»; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Social Change; op. cit; pp. 212; 226.

نجد ضرورة لتأكيد تدهور البيئة الحضرية فى كثير من الدول النامية ، مما قد يكـون سببا فى ضعف الروابط السياسية بين الحكومـات من ناحية ، وفقراء المدن من ناحية أخـرى • وفى ظل هـذا الموقف يصـبح العنف السياسى الحضرى أمرا طبيعيا ومألوفا •

ويحاول جيرالد بريز Breese النظر الى البعد السياسى الحضرى فى الدول النامية من زاوية مختلفة الى حد ما ، حيث يذهب الى أن كثيرا من هذه الدول قد ورثت من الاستعمار نظما ادارية لا تسمح بتحقيق المشاركة السياسية للجماهير الحضرية ، وأن نسبة كبيرة من سكان المدن ينتمون الى أصول ريفية تسود فيها سلطة القبيلة حتى تكاد تستغرق سلطة الدولـة • وفى كثير من الحالات تواجه الأجهزة الادارية الحضرية ضغوطا عـديدة ليس أقلها تدعيم الهياكل الأساسية للمدن • وبسبب قلة الاعتمادات المادية ونقص الكفاءات الفنية تعجز هذه الأجهزة عن تحقيق ما تكفلت بانجازه • وازاء هذا الموقف قد تجد هذه الاجهزة ما يغريها على الانفـاق المظهرى كاقامة المبانى الحكومية الضخمة ودواوين الرئاسة الفخمة ، مفضلة ذلك على الانفاق الضرورى على بعض المشروعات الأساسية • وبسبب احسـاس الجماهير الحضرية بالعجز السياسى والوعود الكثيرة التى يعلنها القـادة السياسيون ، تنشأ هوة سحيقة بين الطرفين ، يدعمها الشـك المتبـادل والثغرات الموجودة فى نظام الاتصال[1] • ومن شأن هذا الموقف أن يسهم فى احداث تفكك سياسى لأنه يستند الى حلقة مفرغة لا تنتهى : وعود وعهود ، فعجز وضعف ، فشل واخفاق •

وتعـد الأسـرة من أكثر النظم الاجتماعية تأثرا بالتحضر فى الـدول النامية • وتبدو أهمية هذه القضية اذا ما أدركنا موقع الأسـرة داخل البناء

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، المرجـع السابق ، ص ١٨٤ — ١٨٧ •

الاجتماعى بوجـه عام والبناء الحضرى بوجـه خاص • ويميـل بعض الدارسين الى التمـيز بين الاسرة النووية المألوفة فى الـدول الصـناعية المتقدمة والاسرة الممتدة المألوفة فى الدول النامية[١] • وعلى الرغم مـن الجدل الحاد بين علماء الاجتماع حول مدى صدق هذه النقطة ، الا أن هناك اتفاقا بينهم حول اتساع نطاق الاسرة فى الدول النامية والدور الذى يلعبه النظـام القرابى فى هذا المجـال مما يفرض التزامات وارتباطات جماعية قوية لا تعرفها الاسرة فى الدول الصناعية المتقدمـة • وليس من الصعب علينا الكشف عن التأثيرات الهائلة التى تمارسها الأسرة على مختلف النظم الاجتماعية الأخرى وعلى الأخص فى الدول النامية • فقرار الزواج بين عروسين ليس قرارا شخصيا بقـدر ما هـو قرار اجتماعى يسـهم فى ايجاد شبكة جديدة من علاقات القرابة والمصاهرة • وتميل الدراسات الانثروبولوجية والاجتماعيـة الى ابراز الـدور الذى تلعبـه الاسرة فى المجتمعات التقليدية بوصفها وحدة انتاجية استهلاكية تشـتق وجـودها الاقتصادى من النشاطات الزراعية[٢] • ومن خلال هذه الاسرة يكتسب الافراد مهاراتهم ، ويطورون قدراتهم ، ويرتبطون بثقافاتهم ، ومن خلالها أيضا تنمو الروابط القوية التى تسود هذه الاسرة حيث تنشأ الالتزامات المتبادلة وتتحدد معايير للثـواب والعقـاب وتتبلور أسـاليب الاشـباع والانجاز • وباختصار فان الروح التى تسيطر على هذه الاسرة التقليدية تقترب مما أطلق عليه دوركايم Durkheim « التضامن الآلى » • ومـن هذه الزاويـة يمكننا فهم التـأثير الذى تمارسـه المدينـة على الاسرة المهاجرة اليها من القرية • واذا كان لنا أن نستخدم مصطلح لويس ويرث Wirth ، فان الحياة الحضرية تمارس تأثيرا كبيرا على العلاقات الشخصية

---

(١) علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

(٢) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية : تحليل نقدى لبعض اتجاهات التغير الاجتماعى » ، المرجع السابق .

المتبادلة بين الافراد[١] • ففى المدن الكبرى تبدو علاقات الافراد وكأنها نفعية وانقسامية • ومن الطبيعى أن يتعارض ذلك مع العلاقات السائدة فى القرية التى تتصف بالطابع الجماعى العاطفى التكاملى •

وفى ضوء الاعتبارات السابقة يمكننا فهم بعض المشكلات الاسرية المرتبطة بالتحضر فى الدول النامية ، خاصة اذا ما تأملنا المحاولات التى يبذلها المهاجرون للتكيف مع ظروف الحياة الحضرية[٢] • فالمهاجر القروى الى المدينة ينتمى الى مجتمع متجانس نسبيا ، لكنه ما يلبث أن يواجه فى المدينة تباينا اجتماعيا قد يصعب عليه فهمه واستيعابه • وعادة ما يضطر المهاجر الى الاقامة ــ لفترة معينة ــ مع زملائه المهاجرين أو بعض أقاربه، وما يلبث بعد ذلك أن يتكيف ــ تدريجيا ــ مع حياة المدينة • كذلك فان المهاجر يواجه ضرورة التكيف مع أسلوب حياة جديدة غير مألوف • فهو يضطر الى التعامل مع اقتصاد نقدى ، وعليه أن يؤدى يوميا ــ وبانتظام ــ ساعات عمل معينة ، وأن يألف الحياة الخالية من « الدفء الأسرى » • يضاف الى ما سبق أن المهاجر القروى يجد موطنه الأول فى الاحياء المتخلفة من المدينة ، حيث يصل التخلف الحضرى الى أقصى مداه • وتعكس هذه الظروف جانبا من التفكك الشخصى الذى قد يصيب المهاجر ، ومن ثم تعكس قدرا ملحوظا من التفكك الاسرى والاجتماعى • ولقد أوضحت بعض الدراسات التى أجريت على مدن افريقية أن الامراض الشخصية والاجتماعية تنتشر انتشارا واضحا بين أسر المهاجرين كالانحراف والجريمة والبغاء وادمان الخمور والمخدرات • كذلك أوضحت دراسات أخرى أن « التضخم الحضرى » الناجم عن زيادة معدلات الهجرة

---

(1) Louis Wirth; «Urbanism as a Way of Life»; Paul Hatt and Albert Reiss (ed.); Cities and Society; Free Press; 1957.

(2) UNESCO; Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; 1956.

الريفية ــ الحضرية قد يؤدى فى بداية الأمر الى التفكك الأسرى[١] ، ثم ما يلبث أن يؤى الى فوضى سياسية وعدم استقرار حكومى ناجم عن البؤس والاحباط التى تعانى منها الجماهير الحضرية الفقيرة فى مدن الدول النـامية •

ويبدو ان هناك اتفاقا ملحوظا بين علماء الاجتماع الحضرى حول تأثير الحياة الحضرية الأسرية وعلى الأخص فيما يتعلق بممارسة الضبط الاجتماعى • فبسبب سيطرة العلاقات اللاشخصية فى المـدينة ، تظهر معايير جديدة للحكم على السلوك والتفكير • ويزداد ذلك وضوحا اذا كان الفرد قد قدم الى المدينة منفردا • وبقدر ماتنهار الانمـاط التقليدية تحت وطـأة البيئة الجديدة بقدر ماتظهر أساليب واجراءات جديدة[٢] • مـن ذلك ــ مثلا ــ معـايير اختيار القرين أو القرينة ، والقيم المتعلقة بتنشئة الأطفال ومعاملة الزوجات • وفى كل الأحوال فان مكانة المرأة داخل المجتمع الحضرى تتعرض لتغيرات عديدة • ففى القرية تكون المرأة عونا اقتصـاديا من خـلال العمل فى الحقول ، لكنها ماتلبث أن تتحول فى المـدينة الى عبء اقتصادى • ولقد سجل بعض الدارسين وجود تغيرات على نمط والتزامات الضيافة لدى أسر المهاجرين الى مدن الدول النامية • فالمألوف أن تبـدى الاسر الحضرية كرم الضيافة لبعض أقارب القرية لدى وصولهم الى المدينة بحثا عن فرص للعمل[٣] • وعلى الرغم من أن هذه الضيافة لاتخضـع لقواعد قانونية ، الا أن انخفاض دخل الاسرة الحضرية قـد يدفعهـا الى طلب بعض المسـاعدات المـالية من هؤلاء الضيوف فى مقـابل ايوائهم.

---

(١) وليام جود ، « التفكك الأسرى » ترجمـة السيد الحسينى ، محمد الجوهرى وآخرون ، دراسة علم الاجتماع ، دار المعـارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٢٨٥ ــ ٣٤٩ •

(2) Juan Elizaga; «A Study on Immigrations to Greater Santiago (Chile)»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 332-359.

(3) Peter Gutkind; «African Urbanism; Mobility and Social Network»; in Gerald Breese; ibid; pp. 389-400.

واطعامهم • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن أطفال المهاجرين الى المدن هم أكثر أفراد الاسر تعرضا للاضطرابات الشخصية • اذ أنهم يعيشون فى ظل بيئة خالية من مقومات الطفولة السعيدة والعلاقات الاسرية المشبعة بسبب تغيب الآباء عن منازلهم لفترات طويلة • ولقد دفعت كل هذه الاعتبارات بعض الباحثين الى القول بأن البيئة الحضرية فى الدول النامية تمارس تأثيرات ضارة على الحياة الاسرية ، وان كنا نجد بعض الدراسات تؤكد أن انتقال الاسرة من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية لايؤدى بالضرورة الى انهيار عائلى مباشر •

بيد أننى أعتقد أن الدراسات السابقة قد بالغت فى مدى التدهور أو الضعف الذى يطرأ على الاسرة الريفية بانتقالها الى المدينة ، كما أننى أشك فيما توصلت اليه بعض الدراسات من أن الاسرة الممتدة الشائعة فى المناطق الريفية قد تشكل عقبة تحول دون التنمية الاقتصادية الحضرية التى تؤكد أهمية الانجازات الفردية وتبنى قيم عامة لاتملكها الثقافة الريفية الزراعية[١] • اننا مانزال بحاجة الى التحقق من مدى صدق هذه القضايا باجراء دراسات حضارية مقارنة تكشف عن مدى التنوعات البنائية والثقافية ومدى ملاءمتها للتصنيع[٢] • فاذا كان بعض الدارسين قد أكدوا أن الاسرة النووية بما تنطوى عليه من فردية تتلاءم مع التصنيع ، فاننا نستطيع القول إن الاسرة الممتدة بما تنطوى عليه من التزامات جماعية لا تشكل عقبة تحول دون التصنيع • وهنا نشير الى ما سبق أن أكدناه فى موضع سابق من أن تجارب مختلف دول العالم لم تكشف عن وجود منطق صناعى عالمى • ان كثيرا من التحليلات السوسيولوجية التى تتناول علاقة التحضر بالتنمية الاقتصادية فى الدول النامية تنطلق من

---

(١) السيد الحسينى ، التقليد والتحديث فى علم الاجتماع ، المرجع السابق.

(2) Joseph Gusfield; «Tradition and Modernity : Misplaced Polarities in the Study of Social Change»; in Jason Finkle and ichard Gable; Political Development and Social Change»; op. cit; pp. 15-26.

مسلمة أن الروابط العائلية الممتدة تعوق التقدم الاقتصادى ، وأنها لاتتلاءم الا مع المجتمعات المنعزلة الريفية المرتبطة بالتقاليد والمعارضة لحرية التعبير الفردى • ولقد عبر بيتر ماريس Marris عن وجهة نظره فى هذه القضية قائلا : « إذا كانت أنماط الحياة الأسرية فى أفريقيا المعاصرة تحول فى بعض الاحيان دون استغلال الفرص الاقتصادية ، فان ذلك لايعود الى ارتباط الافراد بتقاليدهم بقدر ما يعود الى الحماية والامان التى تحققها هذه التقاليد • وفى معظم الاحيان فان البناء الاسرى فى كثير من المدن الافريقية يدفع الافراد الى البحث عن المزايا الاقتصادية أكثر مما يعوقهم عن تحقيق المطامح المهنية والمالية »[1] • وبامكاننا تدعيم وجهة النظر هذه بطريقة مختلفة • فاذا كانت الاساليب التقليدية الاسرية قد برهنت على ملاءمتها للمجتمع التقليدى (الزراعى) ، فان الحياة الحضرية قادرة على خلق أساليب حديثة حضرية • أما حسم الصراع بينهما فيتوقف على عوامل عديدة • ومن هنا يتعين تجنب النظرة البنائية الاستاتيكية للعناصر الثقافية الريفية فى مجتمع حضرى ، اذ أنها تخضع للتغير والتعديل دون أن تفقد فى بعض الاحيان أسسها ودعائمها •

وتدفعنا المناقشات السابقة الى تناول التغيرات الاسرية المصاحبة للتحضر فى الدول النامية من منظور أكثر اتساعا ورحابة • وربما كانت أبرز هذه التغيرات تقلص الوظائف التقليدية وظهور وظائف جديدة • فالوظيفة الطقوسية أو الشعائرية سرعان ما تضعف فى ظل الحياة الحضرية لتحل محلها الوظيفة الاقتصادية • واذا كانت الاسرة المهاجرة تتعرض للانكماش فيما يتعلق بالحجم ، الا أنها لا تفقد وجودها تماما خاصة فيما يتعلق ببعض المناسبات كالزواج والميلاد والوفاة • وتبدو هذه الظاهرة أوضح ما تكون فى المدن التى تضم أقليات عرقية وثقافية وسياسية عديدة ومتنوعة • كذلك فان الادوار الاسرية قد تتعرض لبعض التغيرات نتيجة

---

(1) Peter Marris; Family and Social Change in an African City; London; 1961.

لسيطرة بعض القيم المحبذة للمساواة بين الجنسين • وبالاضافة الى ذلك هناك تغيرات أخرى يمكن التعرف عليها فى يسر وعلى الاخص تلك المتعلقة بأداء الادوار والانجاز والدافعية والصراع والتعاون وغير ذلك من العناصر الثقافية والعمليات الاجتماعية ، وان كنا نجد الكتابات التى تتناول هذه هذه التغيرات مانزال تعتمد على التحليلات النظرية أكثر من اعتمادها على الدراسات الواقعية •

وأغلب الظن ان اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بالتحليل الكيفى للاسرة الحضرية فى الدول النامية قد حال بينهم وبين دراسة تأثير البناء السكانى للمدينة على الحياة الاسرية والزواجية عموما • فمن المألوف أن نجد شذوذا فى التوزيع النوعى فى المدن الصغرى ، ثم يزداد هذا الشذوذ تطرفا فى المدن الكبرى[١] • ويصل هذا الشذوذ النوعى أقصى مداه فى دول الخليج العربية • ففى دولة الامارات العربية تصل نسبة الذكور بالنسبة للاناث الى حوالى ٢٢٥٪[٢] • وتفسير ذلك متاح • اذ أن مدن الدول النامية تجذب عموما الذكور الشباب غير المتزوجين ، مما يؤدى فى النهاية الى اختلال نسبة الذكور بالنسبة لنسبة الاناث • ومن الطبيعى أن يؤدى هذا الاختلال الى نتائج عديدة • من ذلك أن فرص الشباب فى الحصول على زوجات تبدو ضئيلة فى هذه المدن ، مما قد يدفعهم الى العودة الى قراهم الاصلية للبحث عن قرينات • أما فيما يتعلق بالنسبة الضئيلة من الاناث اللائى يعشن فى المدينة فانهن قد يواجهن بعدة احتمالات : من بينها زيادة مكانتهن ، واكتساب مزيد من الحرية الفردية ،

---

(١) ففى الهند — مثلا — لوحظ ان المناطق الحضرية بصفة عامة تضم ١٢٣ رجلا لكل امراة ، وتزداد هذه النسبة فى المدن الكبرى لتصل الى ١٦٢ رجلا لكل مائة امراة : انظر

«Bombay Migration Study : A Pilot Analysis of Migration to a Asian Metropolis»; in Gerald Breese; The City in .... op. cit; pp. 300-376.

(٢) نادر الفرجانى ، « استخدام الأيدى العاملة فى الدول العربية الخليجية » ، المعهد العربى للتخطيط ، الكويت ، ١٩٧٩ •

بل قد يصل الامر فى بعض المدن الافريقية الى حصولهن على قـدر من الحرية فى اقامـة علاقات جنسية خارج نطاق الزواج[١] • وفى المـدن الآسيوية التى تتألف من جماعات عرقية ودينية متباينة يبـدو الزواج انضوائيا ، أى أنه يتم من داخل هذه الجماعات • وبقدر ما تتفاوت هذه الجماعات فى حجمها بقدر ما تتباين فرص الحصول على قرين أو قرينة • وفضلا عن ذلك أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن المهاجرين الريفيين الى مدن الدول النامية يعبرون عن تصورات أولية نحو الزواج والحـياة الاسرية • فالزوجة بالنسبة للزوج تبـدو مجرد طاهية لطعامه ، محققة لاشباعاته الجنسية • أما الاعتبارات العاطفية فلا تحتل الا أهمية ثانوية لدى هؤلاء المهاجرين[٢] • كذلك لوحظ فى بعض مدن أفريقيا أن نـدرة النساء قد تسهم فى تخريب الحياة الزواجية بسبب الاغراءات التى تتعرض لها الزوجات لممارسة علاقات جنسية خارج نطاق الزواج فى ظل ظروف اقتصادية قاسية ، حتى أن كثيرا من المهاجرين الى هذه المدن يعبرون عن مخاوفهم من اقامة علاقات زواجية بسبب عدم الثقة المحتملة بينهم وبين زوجاتهم فى المستقبل • ويبدو ان المهاجرين الريفيين الى المـدن الافريقية يميلون الى اعتبار الحياة الحضرية غير ملائمة لتنشئة أطفالهم ، اذ أنهـا تخضعهم لكثير من الضغوط التى لا يستطيعون مقاومتها فى ظل الظروف الاقتصادية والبيئية القاسية • وعلى الرغم مما توصلت اليه الدراسات التى تناولت آثار التحضر على البناء الاسرى فى الدول النامية ، الا أن ذلك لايدفعنا الى القول بأن هذا البناء يتعرض لعملية « تآكل » ، اذ أن التغير الذى يطرأ على هذا البناء لا يتعلق بجانب واحد ، بقدر ما يتصـل بالاسرة كوحدة بنائية شاملة •

ونختتم هذه المناقشة بتناول التغيرات الفكرية أو المثالية الناجمـة عن

---

(1) Peter Gutkind; Urban Anthropology; op. cit p. 109.

(2) Peter Marris; Family and Social Change in an African Life; op. cit; p. 112.

التحضر فى الدول النامية • ومنـذ البداية نود أن نشير الى أن التراث السوسيولوجى المعاصر يميل الى تأكيد قضية أساسية هى ، أن الزيادة السكانية والهجرة والاتصال الثقافى والتعليم قد أدت جميعها الى حـدوث تغيرات هامة على الانساق الفكرية التى تؤمن بها الجماعات المختلفة • ويبرر علماء الاجتماع ذلك بأن التحديث والتحضر قد فرضا انساقا فكرية مثالية قادرة على التلاؤم معهما[1] • ففى المجتمعات المحلية الريفية الصغيرة يميل أفرادها الى الايمان بمعتقد واحد يفسرون من خلاله الظواهر الخارقة للطبيعة التى لا تخضـع لمنطق واضح ملموس • كمـا أن هؤلاء الافراد يمنحون التقاليد أهمية بالغة ، فهى مصـدر التوجيه والالهام • ومن هنا تتضح الأسباب الكامنة وراء تأكيد هؤلاء العلماء للتعارض الصريح بين عناصر المجتمع التقليدى من ناحية ، ومقومات التحديث من ناحية أخرى • ومعنى ذلك أن القرية الصغيرة تتعرض لضغوط داخلية وخارجية تؤدى فى النهاية الى انهيار الانساق الفكرية القديمة وظهور أنساق أخرى حديثة • بيد أن هذه الأنساق الأخيرة لاتظهر من فراغ ، اذ انها تستند الى بعض المثاليات والتصورات القديمة المرتبطة بجوهر الحياة الاجتماعية • وهنـا يبدو أن تأثير التعليم والتكنولوجيا قويا وعميقا ، لانهما يستطيعان القاء الشكوك حول كثير من المسلمات المثالية السائدة •

ويبدو أن الحياة الحضرية تميل الى تأكيد أهمية المبادىء والتكيف مع الظروف الاجتماعية والسياسية المتغيرة • فنظرة ساكن المدينة نحـو العالم تتأثر الى حد كبير بمستوى ثقافته وتعليمه بوجـه عام • ومن هنا يمكن فهم المحاولات العديدة التى يبذلها المهاجر الجديد الى المدينة من أجـل

---

(١) انظر على سبيل المثال :

L. Rudolph and S. H. Rudolph; The Modernity of Tradition; Chicago; 1967; M. Singer; «The Modernization of Religious Beliefs»; in M. Weiner (ed.); Modernization : The Dynamics of Growth; New York; 1966; pp. 55-67.

التكيف مع الحياة الحضرية وما تتضمنه من عناصر ثقافية ومثالية • وتشمل هذه المحاولات الحصـــول على وظيفة أو عمل ملائم ، واقامـــة صداقات قوية ، والانتماء الى الجماعات أو الروابط المختلفة • وباختصار فانه يحاول ارساء دعائم « الحياة السعيدة » كما يتصورها بعد أن أجبر على التخلى عن « الحياة المستقرة » التى ألفها فى القرية قبل هجرته • ومن الطبيعى ألا يتحقق ذلك بطريقة آلية ، خاصة اذا ما كان الامر متعلقا بالثقافة أو ان شئنا التحديد « أسلوب الحياة » • ويبدو أن الحضريين فى معظم الدول النامية ـــ سواء مهاجرين أو مقيمين ـــ قد تعرضوا لهذه التغيرات الفكرية أو المثالية ، أو بعبارة أخرى عاشوا حالة الصراع بين ثقافتين متباينتين • وربما كان مايرِ Mayer وبودرميكر Powdermaker من أبرز علماء الاجتماع والانثروبولوجيا اهتماما بهذه القضية ، حيث نجدهما يميزان بين فئتين من سكان المدن فى الدول النامية : الاولى تضم أولئك الذين تخلوا تماما عن ثقافتهم الريفية القديمة واتخذوا من المدينة مقرا دائما لهم • أما الثانية فتضم أولئك الذين يعيشون فى المدينة باجسامهم بينما يعتمدون على الثقافة القرية فى ســـلوكهم ومعتقداتهم[1] • والواقـــع أن ظاهرة التعايش بين الانساق القيمية الريفية والانساق القيمية الحضرية تعـــد من الظواهر المألوفة فى مدن دول العالم الثالث حتى أننا لانجـــد دراسة حديثة حول هذا الموضوع تغفل الاشارة اليها[2] • واذا ما سلمنا بوجهة النظر الذاهبة الى حتمية الصراع الثقافى الـــذى يتعرض لـــه المهاجر الى المدينة ، فان ذلك يتطلب منا الاشارة الى أن نوعية هذا الصراع وشدته تتوقفان على خبرات المهاجر الاجتماعية والسياسية والثقافية • اذ أننا نفترض أن المهاجرين الى مدن الدول النامية يتفاوتون تفاوتا شديدا فيما يتعلق بهذه الخبرات •

---

(1) H. Powdermaker; Cooper-Town : Changing Africa; New York; 1962.

(2) George Theodorson; «Acceptance of Industrialization and its Attendant Consequences for the Social Patterns of Non-Western Societies»; in Jason Finkle and Richard Gable; Political Development and Social Change; op. cit; pp. 204-212.

كذلك فاننا لانستطيع قبول الثنائية التى أشار اليها بودرميكر Powdermaker حينما ميز بين ما أطلق عليهم « الحضريين » و « التقليديين » فى ضوء أنساق المعتقدات السائدة بينهم • إذ أن ما أطلق عليهم « بالتقليديين » لايعبرون عن تحفظاتهم ازاء الحياة الحضرية الا فى حالات الفشل أو الاستياء أو عدم الاندماج الكامل مع حياة المدينة • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحضرية أن خصائص « الحضريين » فى مدن الدول النامية تشيع بصفة خاصة لدى المستويات الطبقية الدنيا ، وأن ذلك يكاد ينطبق دون استثناء على لاجوس وأكرا وكامبالا ونيروبى[1] • إن وصف « التقليديين » بالخصائص الريفية يعنى أن ثقافة القرية لم تتعرض هى الأخرى للتغير ، وهو ما يتعارض مع ما توصلت اليه الدراسات الريفية المعاصرة[2] • واذا ما سلمنا بحدوث تغير على ثقافة القرية فلابد وأن نسلم بحدوث تغير مواز على المهاجر « التقليدى » • ولقد قصدنا باثارتنا لهذه القضايا القاء الشكوك على بعض المسلمات الشائعة فى الدراسات الاجتماعية الحضرية ، ذلك أن السيطرة والهيمنة التى حققها علم الاجتماع الغربى قد فرضت نوعا من التعصب الفكرى العنصرى بحيث بدا كل ما هو غير غربى مرادف لكل ما هو تقليدى • وأعتقد أن الدراسات الحضرية المقارنة يمكن أن تكون بداية للقضاء على هذا التعصب ، كما أن تبنى منطلقات فكرية وايديولوجية مرنة وواسعة يجب أن يكون هدفا أساسيا ، ليس فقط بالنسبة لدراسة الظواهر الحضرية ، بل أيضا بالنسبة لدراسة الظواهر الاجتماعية بوجه عام •

---

(1) A. L. Epstein; «Urbanization and Social Change in Africa»; in Gerald Breese; The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 246-287.

(٢) السيد الحسينى ، « القرية فى الدول النامية » ، المرجع السابق ، وانظر أيضا جدعون جوبرج ، « الفروق الريفية — الحضرية : دراسة فى علم الاجتماع الريفى » ، ترجمة محمود عودة ، محمد الجوهرى وآخرون ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ص ٦٦ — ١١٩ .

الفصل الرابع

المدينة بين المكان والسكان : نظرتان

مع أن الاهتمام بدراسة المدينة قديم قدم الحضارات الانسانية التى أقامها الانسان ، الا أن الدراسة الجادة لها كانت أحد النتائج الهامة المرتبطة بنشأة علم الاجتماع وتطوره • فكثير من كتابات العلماء الاجتماعيين من أمثال ماركس Marx وماكس فيبر Weber ودوركايم Durkheim تعكس اهتماما ملحوظا بالمدينة الغربية التى اتخذت شكلا طاغيا بحدوث الثورة الصناعية • ومن الطبيعي أن تحتل وجهات النظر التى قدمها هؤلاء العلماء أهمية تاريخية وسوسيولوجية • فهى تتضمن تسجيلا لما طرأ على المدن الغربية ، وهى فى الوقت ذاته تمثل مدخلا كلاسيكيا واسع النطاق لفهم المدينة الغربية نتيجة للثورة الصناعية[1] • ولاشك أن علماء اجتماع القرن التاسع عشر قد عالجوا المدينة من منظور واسع • اذ نجد ماركس يربط نمو المدن بالتحلل الذى طرأ على المجتمع الاقطاعى الزراعى • ومعنى ذلك أنه قد درس نمو المدن الغربية فى ضوء التحولات العامة التى طرأت على المجتمع الغربى وعلى الأخص التناقضات داخل المجتمع الاقطاعى وظهور المجتمع الرأسمالى ذاته[2] • أما ماكس فيبر فقد ربط نمو المدن بالتغيرات الاساسية التى طرأت على الثقافة الغربية وعلى الأخص القيم الدينية • وعلى الرغم من التباين الظاهر فى المنطلقات الفكرية لهذين الرجلين ، الا أنهما قد نظرا الى المدينة الغربية نظرة بنائية تاريخية •

---

(1) P. Abrams; «Towns and Economic Growth : Some Theories and Problems»; in P. Abrams and E. Wrigley (eds) Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; pp. 9-34.

(2) M. Dobb; Studies in the Development of Capitalism; London; 1946.

على أن دراسة المدينة قد اتجهت خلال القرن العشرين نحو مزيد من التخصص والتحديد • ومن اليسير تفسير هذه النقطة فى ضوء التطورات التى مرت بها العلوم الاجتماعية خلال العقود الاخيرة[١] • فلقد أصبحت المدينة موضوعا لدراسة علوم كثيرة لعل أهمها : الاجتماع ، والجغرافيا ، والاقتصاد ، والسكان ، والسياسة ، فضلا عن العلوم التطبيقية الاخرى كتخطيط المدن والهندسة المعمارية • ولقد صاحب هذا التخصص تطورات هامة طرأت على مناهج البحث وعلى الأخص سيطرة النزعتين الكمية والاجرائية • لقد انشغل عدد من علماء الاجتماع الحضرى خلال الجانب الاكبر من القرن العشرين (وعلى الأخص فى الولايات المتحدة) بتصميم أدوات قياسية عديدة من أجل فهم الظواهر الحضرية ، واتخذ ذلك رد فعل طبيعى للنظريات الكبرى التى ظهرت فى أوربا خلال القرن التاسع عشر[٢] • واذا كنا نلمس فى الوقت الحاضر اتجاهات نظرية متعددة ومتصارعة فى دراسة المدينة ، فان ذلك لا يعنى تنوع الواقع الحضرى بقدر ما يعنى تعدد التصور السوسيولوجى • وفى محاولة لتصنيف النظريات السوسيولوجية المفسرة للمدينة ، نجد جوبرج Sjoberg يحدد أربعة اتجاهات نظرية أساسية هى المدينة كمتغير أساسى ، والتكنولوجيا ، والقيم الثقافية ، والقوة أو السلطة[٣] • وعلى الرغم من أن هذا التصنيف قد يسهم كثيرا فى فهم السياق الثقافى والبنائى للمدينة ، الا أن الحدود بين الاتجاهات النظرية قد تتلاشى فى خضم المعالجة السوسيولوجية • لذلك

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : السيد الحسينى ، نحو فهم جديد لقضايا علم الاجتماع : دراسة فى مشكلات النظرية والمنهج » ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب الكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(٢) انظر محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، مدخل نظرى ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ . حيث نجد معالجة مستفيضة لبعض الاتجاهات النظرية فى دراسة المدينة .

(٣) جدعون جوبرج ، علم الاجتماع الحضرى المقارن ، ترجمة السيد الحسينى ، فى دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٣ — ٤٩ .

يبدو لنا أن التصنيف الاولى البسيط الواسع قد يكون أكثر فائدة فى هـذه المرحلة من تطور علم الاجتماع الحضرى • لذلك فاننا نميز هنا بين اتجاهين نظريين يكاد ينطلق منهما معظم علماء الاجتماع الغربيين فى دراسة المدينة • أما الاتجاه الأول فهو ايكولوجى حيث يسلم بأن جوهر المدينة يتمثل فى تركز عدد كبير من السكان فى منطقة جغرافية محدودة • ويهتم هذا الاتجاه بدراسة تأثير حجم المدينة وكثافتها على التنظيم الاجتماعى • كذلك فان هذا الاتجاه يسلم بأن وصف الفرد « بالحضرية » أو « القروية » يتوقف — أساسا — على عدد سكان المنطقة التى يعيش فيها • ولعل القضية الاساسية التى ينهض عليها هذا الاتجاه هى أن عدد سكان المنطقة يلعب دورا أساسيا فى تحديد طابع التنظيم الاجتماعى السائد فيها • ومن بين العناصر التى يستند اليها التنظيم الاجتماعى : أساليب توزيع القـوة ، وتنفيذ القرارات ، وتنظيم النشـاطات التعاونية ، ومواجهة الصراعات ، وأساليب الاتصال ، والتنشئة الاجتماعية ، فضـلا عن تحقيق قـدر من الاتفاق على الاهداف العامة[١] • أما الاتجاه النظرى الثانى فهو تنظيمى ، حيث ينطلق من دراسة أنماط السلوك الصادرة عن السكان الحضريين • والهدف الاساسى الذى يسعى الى تحقيقه هذا الاتجاه هو دراسة العمليات التى من خلالها تنمو المدن أو تنكمش • على أن التمييز بين هذين الاتجاهين لايعنى انعدام الصلة بينهما ، فكلاهما يربط بين حجم السكان فى المدينة وأنماط السلوك الصادر عنهم • غير أن ما يميز بينهما هو أن الاتجـاه الايكولوجى يميل الى معالجة التغيرات التى تطرأ على التنظيم الاجتمـاعى بوصفها نتيجة للتغيرات التى تطرأ على الحجم ، بينما يميل الاتجاه التنظيمى الى معالجة هذه التغيرات التى تطرأ على التنظيم الاجتماعى بوصفها سببا للتغيرات التى تطرأ على الحجم[٢] • وقد نستنتج من ذلك أن وصف الفرد

---

(1) R; N; Morris; Urban Sociology : George Allen and Unwin LTD; 1968.

(2) P. Mann; An Approach to Urban Sociology; Routledge and Kegan Paul; London; 1968; Chap. 7.

« بالحضرية » أو « القروية » ــ طبقا للاتجاه التنظيمى ــ يتوقف على طبيعة السلوك الصادر عنه •

وعلى الرغم من ظهور اتجاهات نظرية سوسيولوجية عديدة حاولت فهم بناء المدينة وديناميانها ، الا أن هذه الاتجاهات قد أدخلت فى اعتبارها القرية كوحدة بنائية مقابلة للمدينة • وربما كان ذلك أحد الاسباب القوية التى دفعت كثيراً من علماء الاجتماع الى الاهتمام بدراسة الفروق الريفية ــ الحضرية • فلقد اكتسبت هذه الدراسة طابعا علميا مع مطلع القرن العشرين نتيجة للتطور الذى طرأ على مناهج البحث فى علم الاجتماع ، والذى تمثل فى بداية الأمر فى تطوير نماذج مثالية Ideal Types يقيمها الباحث بنفسه من خلال تجريد خصائص الموضوع الذى يهتم بدراسته وذلك بهدف فهم العالم الواقعى ، حيث يعتبر النموذج المثالى أداة ملائمة لتحليل الاحداث التاريخية الملموسة أو المواقف الواقعية ، ومفهوما محددا يمكن أن نقارن به المواقف والافعال ، فضلا عن أنه يمثل أداة منهجية تمكن الباحث من السيطرة الفكرية على البيانات الواقعية[1] • ولقد ساعدت فكرة النماذج المثالية بعضا من رواد علم الاجتماع فى وصف المجتمعات والمقابلة بينها ، فقدموا ثنائيات تقابل بين نوعين متباينين من المجتمعات يختلفان عادة اختلافا أساسيا فى الخصائص والسمات المميزة لكل منهما • فعلى سبيل المثال نجد هنرى مين Maine يميز بين مجتمع يرتكز على المكانة وآخر يستند الى العقد ، وتونيز Tonnies يفرق بين المجتمع المحلى والمجتمع ، وهوارد بيكر Becker يقيم تفرقة بين المجتمع المقدس والمجتمع العلمانى ، ودوركايم Durkheimيميز بين مجتمع يقوم على التضامن العضوى وآخر يستند الى التضامن الآلى ، وردفيلد Redfield يحدد

---

(١) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، ماكس فيبر ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٦٧ ، ص ص ١٠٥ ــ ١٣٤ .

خصائص المجتمع الشعبى فى مقابل خصائص المجتمع الحضرى[1] :

بيد أن الخصائص التى قدمها ردفيلد لوصف المجتمع الشعبى كان لها أبلغ الاثر فى تطـور دراسة الفروق الريفية ــ الحضرية . فالمجتمع الشعبى كما يقول : « صغير ، منعزل ، أمى ، متجانس ، يربط بين أعضائه احساس قوى بالتضامن .. والسـلوك فيه تقليدى وتلقائى وشخصى . وفى هذا المجتمع يطغى كل ما هو مقدس على كل ما هو علمانى ، كمـا أن الاقتصاد يعتمد على المكانة أكثر من اعتماده على السوق »[2] . وإذا كان ردفيلد قد أشار الى أن ملامح المجتمع الحضرى يمكن أن تتحدد بالنظر الى الخصائص المميزة للمجتمع الشعبى ، فان لويس ويرث Wirth قد خصص مقالاً مطولا حدد فيه الخصائص التى تميز المجتمع الحضرى فى مقابل تلك التى حددها ردفيلد للمجتمع الشعبى . « فكلما زاد عدد السكان ، وارتفعت معـدلات كثافتهم ، وعظم تباينهم ، عبر ذلك عن الخصائص المرتبطـة بالحضرية ، تلك التى تتمثل فى ضعف روابط القرابة والجيرة وتضاؤلها . ونتيجة لذلك تظهر المنافسة ووسائل الضبط الاجتماعى الرسمى لتحل محل روابط التضامن . كذلك فان العلاقات السائدة بين أفراد المدينـة تبـدو ثانوية وسطحية وانتقالية وانقسامية »[3] . وعلى الرغم من الأهمية النظرية التى تنطوى عليها الثنائيات ، الا أن كثيرا من دارسى التحضر يرون أنها لا تمثل سـوى وسيلة مبدئية يصعب الاعتماد عليهـا كلية فى التمييز بين

---

(1) P. Hauser; «Observations on the Urban-Folk and Urban-Rural Dichotomies As Forms of Western Ethnocentrism»; in P. Hauser and L. Schnore (eds) The Study of Urbanization; New York; 1965; pp. 503-518.

(2) R. Redfield; «The Folk Society» in P. Hatt and A. Reiss Jr; (eds.); Cities and Society; Free Press of Glencoe; Inc; N. Y; 1968; pp. 30-45.

(3) L. Wirth; «Urbanism as a Way of Life»; in A. Reiss Jr; and P. Hatt (eds) Ibid; pp. 46-64.

الريف والحضر ، لانها تغفل عاملا هاما من عوامل تشكيل هذه المجتمعات هو : التغير • ولعل ذلك يفسر لنا كثرة التحفظات التى أثيرت حول ثنائية « ريفى ــ حضرى » فى كثير من الكتابات المتعلقة بهذا الموضوع • فعلى سبيل المثال نجد سوروكين Sorokin وزيمرمان Zimmerman يذهبان الى أن « التحول من المجتمع المحلى الريفى الخالص الى مجتمع حضرى لايتم فجأة ، ولكنه يحدث بشكل تدريجى • فليس ثمة خط أو حد مطلق يستطيع ان يكشف لنا عن وجود فارق فاصل بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى[1] •

وفى مواجهة الانتقادات العديدة التى وجهت الى النماذج المثالية ، ظهر اتجاه آخر يطلق عليه مركب السمات trait complex • وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه الاخير ليس بعيدا تماما عن فكرة النموذج المثالى، الا أن أهم ما يميزه هو اعتماده فى التمييز بين الريف والحضر على خصائص واقعية أو متغيرات يحاول أن يربط بينها لكى يحدد فى النهاية السمات التى تميز كلا من المجتمعين الريفى والحضرى • غير أن ذلك لم يمنع بعض الدارسين من أمثال سوروكين وزيمرمان من الاعتماد على متغير سببى واحد ينطلقون منه لدراسة السمات الاخرى التى يفترض أنها ترتبط به ارتباطا وثيقا كالمهنة والحجم وكثافة السكان • ويميز بعض أصحاب هذا الاتجاه بين التحليل الكيفى والتحليل الكمى للسمات المميزة لكل من الريف والحضر • وتعد المهنة نموذجا للاول (الكيفى) بينما يعتبر الحجم أو كثافة السكان نموذجا للثانى (الكمى) وبغض النظر عن المدخل الذى يمكن من خلاله دراسة الفروق الريفية ــ الحضرية فى هذا الاتجاه ، فان النتيجة التى خلص اليها الباحثون هى أن هناك سمات متعددة مرتبطة

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر : السيد الحسينى ومحمد على محمد . « الفروق الريفية ــ الحضرية فى بعض الخصائص السكانية : تحليل احصائى »، الحلقة الدراسية الأولى لعلم الاجتماع الريفى فى مصر ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

فيما بينها ارتباطا سببيا بحيث تشكل عموما الخصائص المميزة لكل من المجتمعين الريفى والحضرى • ومن بين هذه الخصائص : الفروق المهنية والبيئية ، وحجم المجتمع ، وكثافة السكان وتجانسهم أو تباينهم ، ومعدل الحراك الاجتماعى ، واتجاه الهجرة ، ونمط التباين الاجتماعى ، وأنساق التفاعل •

على أن سيطرة النزعتين الكمية والاجرائية على علم الاجتماع الامريكى قد دفعت بعض العلماء الى صياغة مفهوم كتب له الذيوع والانتشار هو « المتصل الريفى ــ الحضرى » Rural-Urban Continuum حيث يشير الى وجود نمط من التدرج القائم بين المجتمعات طبقا لدرجات « الريفية » و « الحضرية » بحيث يصبح من اليسير بعد ذلك أن يقع أى مجتمع انسانى على نقطة معينة من هذا المتصل • واذن فتعريف الريف أو الحضر يتم فى ضوء الفروق الكمية المميزة للمجتمعات المحلية الريفية والحضرية • كذلك يفترض أصحاب هذا الاتجاه أن تعريف المجتمعات المحلية وفقا لقطبى النموذج المثالى « شعبى فى مقابل حضرى » ، انما ينطوى ضمنيا على فكرة متصل للمجتمعات المحلية ، ذلك أن كل الشواهد الواقعية التى تناولت المجتمعات المحلية يمكن أن تقع على نقطة معينة من هذا المتصل[1] • وتستند فكرة المتصل الريفى ــ الحضرى الى افتراضين أساسيين : الاول هو أن المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنتظم من الريفية الى الحضرية وفقا لعدد من الخصائص continuous graduation ، والثانى أن هذا التدرج يصاحبه بالضرورة اختلافات أو فروق متسقة consistent variation فى أنماط السلوك[2] • وعلى الرغم من أن أصحاب فكرة المتصل الريفى ــ الحضرى لم يحصروا لنا تلك الفروق

(1) P. Hatt and A. Reiss (ed.) Cities and Society; op. cit. The Introduction.

(2) S. Queen and D. Carpenter; The American City; N. Y; Macmillan Hill Book Co; 1958; p. 38.

المتسقة التى تحدث فى أنماط السلوك والمصاحبة للتدرج المستمر فى بعض المجتمعات ، الا أننا نستطيع القول بأن هذه الفروق تتبدى فى بعض الخصائص الاجتماعية والسكانية التى درج علماء الاجتماع الحضرى على الاشارة اليها والتى أهمها : البناء المهنى ، وتقسيم العمل ، والتدرج الاجتماعى ، والحراك الاجتماعى ، والمشاركة فى التنظيمات الطوعية ، والعزلة المكانية ، والتساند الوظيفى ، والعلاقات الاجتماعية ، ووسائل الضبط الاجتماعى[١] • وعلى الرغم من أن المتصل الريفى ــ الحضرى قد استطاع التغلب على المشكلات القياسية التى واجهت كلا من النموذج المثالى ومركب السمات ، الا أنه مايزال بحاجة الى مزيد من الاختبار الواقعى فى مجتمعات مختلفة وثقافات متباينة • ففى تركيا والهند ووسط أفريقيا لم يكن هناك اتصالا واضحا فيما يتعلق بالخصائص الاجتماعية المرتبطة بالحضرية والقروية ، بحيث يمكن القول إنه ليس ثمة تحققا واقعيا لفكرة المتصل[٢] • ولقد عبر بوكوك Pocok عن هذه النقطة بعد دراسة ميدانية أجراها فى الهند بقوله : « إن المدينة التى أدرسها مدينة هندية ، والقرية قرية هندية • ولقد حاولت فى هذا المقال أن أسير فى طريق يمكن أن تبرز فيه الفروق بين هذين الشكلين من الاستيطان البشرى، فانتهيت الى أن علم الاجتماع فى الهند لا يمكن تقسيمه الى علم اجتماع ريفى وعلم اجتماع حضرى »[٣] • وفى مصر أوضحت دراستنا عن الفروق الريفية الحضرية فى بعض الخصائص السكانية أن فكرة المتصل لم تتحقق

---

(1) O. Lewis; «Further Observations on the Folk-Urban Contiuum and Urbanization With Special Reference to Mexico City»; in P. Hauser and L. Schnore (eds.) The Study of Urbanization; op. cit; pp. 491-502.

(2) R. Pahl; «The Rural-Urban Continuum»; in R. Pahl (ed.); Readings in Urban Sociology; Pergman Press; London; 1968; pp. 280-288.

(٣) جدعون جوبرج ، « الفروق الريفية الحضرية » ترجمة محمود عوده فى ميادين علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، الطبعة الثالثة .

الا بشكل جزئى • فعلى سبيل المثال تحقق المتصل فيما يتعلق بخاصيتى العمر والحالة الزواجية[١] •

واذا ما أمعنا النظر فى كثير من الدراسات المعنية بالفروق الريفية — الحضرية ، لاحظنا أنها تعانى من ثغرات عديدة • فكثير من التعميمات التى توصلت اليها لاتكاد تنطبق الا على المجتمعات الصناعية الغربية المتقدمة ، كما أنها تميل الى تشبيه ظروف التحضر التى تشهدها الآن الدول النامية بظروف التحضر التى شهدتها من قبل الدول الصناعية الغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • ولقد أوضحت فى موضع سابق أن التحضر الذى شهده العالم الغربى كان مرتبطا أوثق الارتباط بالتصنيع والنمو الاقتصادى الحضرى ، بينما لاتشهد الآن مدن العالم الثالث ثورة صناعية أو نموا صناعيا هائلا يبرر زيادة أحجامها • كذلك فان كثيراً من الدراسات الريفية — الحضرية قد مالت الى تأكيد الطابع التضامنى الذى يربط القرية بالمدينة • إن العلاقة التى تربط القرية بالمدينة (وعلى الأخص فى الدول النامية) ليست علاقة بين طرفين متكافئين • ومن هنا فنحن نميل الى دراسة العلاقة بين القرية والمدينة فى ضوء مفاهيم كالقوة والسلطة لا فى ضوء مفاهيم كالتكامل والتساند • ان التسليم المطلق بفكرة المتصل الريفى — الحضرى يجعلنا نذهب الى أن الفرق بين القرية والمدينة هو فرق فى الدرجة لا فى النوع • ومن شأن ذلك أن يبعدنا عن فهم السيطرة التى مارستها المدينة على القرية لقرون عديدة ، مما أسهم بالتالى فى ظهور ازدواجية تعبر عن عناصر زراعية تقليدية تسود القرية ، وعناصر صناعية حديثة تسود المدينة • إن الفهم البنائى — التاريخى لعلاقة القرية بالمدينة مطلب أساسى لتحديد الاختلافات بينهما ، ثم تفسير هذه الاختلافات تفسيرا عميقا • وحينما نطالب بضرورة الفهم البنائى لهذه العلاقة ، فاننا نعنى

---

(١) السيد الحسينى ومحمد على محمد ، « الفروق الريفية الحضرية ..» المرجع السابق •

وضع القرية والمدينة فى سياق مجتمعى ودولى شامل • فالقرار الاقتصادى أو السياسى الذى يتخذ فى عاصمة دولة متقدمة كبرى يؤثر تأثيرا مباشرا على حياة القرويين الذين يعيشون فى قرية منعزلة تنتمى الى دولة متخلفة صغرى • ومن هنا يبدو واضحا كيف أن العوامل البنائية الخارجية تمارس تأثيرا حاسما على علاقة القرية بالمدينة • كذلك فان الفهم التاريخى لعلاقة القرية بالمدينة هو الذى يمكننا من فهم البناء الاجتماعى والثقافى المميز لكل منهما عبر فترات زمنية مختلفة • والواقع أن روبرت ردفيلد Redfield يعد من أظهر العلماء الاجتماعيين الذين أكدوا أهمية الفهم البنائى للقرية والمدينة• فلقد أوضح أنه يستحيل وجود فلاحين دون مدينة يرتبطون بها ، وبالتالى يصعب وجود مدينة دون فلاحيها • غير أن ردفيلد لم يطبق فهمه البنائى على الانساق الاجتماعية الكبرى والتطورات التاريخية المختلفة ، على الرغم من أن اهتمامه بتحليل الثقافتين « العليا » و« الدنيا » يعد خطوة هامة فى هذا الاتجاه[1] •

وفضلا عما سبق فاننى أعتقد أن النظريات الغربية فى التحضر لا تستطيع — بحكم ضيق نطاقها — تفسير التغيرات الحضرية الثورية التى تشهدها دول كالصين والاتحاد السوفييتى وكوبا ، بل انها لاتستطيع أيضا أن تفسر بكفاءة عالية ديناميات التحضر فى الدول النامية ذاتها • اذ أنها (أى النظريات) تميل الى تفسير التحضر على أنه رمز من رموز المكانة الدولية ، وتميل — فى الوقت ذاته — الى اغفال الدور الذى تلعبه الامبريالية والضغوط الدولية فى هذا المجال • كذلك فان هذه النظريات

---

(١) عبر ردفيلد عن آرائه ووجهات نظره فى عدد من مؤلفاته لعل أهمها

The Folk Culture of Yucatan; Chicago University Press; 1941; The Primitive World and its Transformations; Ithaca : Cornell University Press; 1955; The Little Community and Peasant Society and Culture; Chicago University Press; 1955.

لا تهتم كثيرا بابراز التنوعات المختلفة لظـاهرة التحضر والاعتبـارات الايديولوجية الكامنة وراء هذه الظاهرة • ان فهم أنماط التحضر فى عالمنا المعاصر يتطلب التمييز بين ثلاثة مستويات من البناء : العالمي ، والقومي ، والمحلى• وعلينا بعد ذلك أن نتعرف على التأثير الذى يمارسه البناء العالمى على البناء القومى ثم علينا أن نتعرف على التأثير الذى يمارسه البناء القومي على البناء المحلى • ان ذلك يمكننا من الوقوف على مظاهر السيطرة التى يمارسها البناء « الأعلى » على البناء « الأدنى »[١] • فإذا ما استطعنا بعد ذلك الربط بين هذا البعد البنائى والمعانى المختلفة للقرارات التى تصـدر على مختلف مستويات البناء الاجتماعى ، فاننا سنكون فى وضع يمكننا من فهم الفروق الريفية ــ الحضرية فهما عميقا نفاذا[٢] • وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكننا تخصيص مناقشة مستفضية للخصائص الايكولوجية والسـكانية للمدن ، على أن نضمن هذه المناقشة ملاحظاتنا النقدية على أهم النظريات والبحـوث التى تناولت هذه الخصائص • والواقع أن اهتمامنا بالبعدين الايكولوجى والسكانى انما ينبع من مناقشاتنا السابقة التى أكدنا فيهـا ضرورة تبنى تصنيف نظرى واسع فى هذه المرحلة من تطور علم الاجتماع الحضرى • ومن خلال معالجة هذين البعدين سنعالج كثيرا من الظواهـر الحضرية معالجة بنائية شاملة •

أولا ــ الايكولوجيا الحضرية :

ظهر مصطلح الايكولوجيا لاول مرة فى سنة ١٨٦٩ حينما استخدمه عالم الاحياء الالمانى ايرنست هايكل Haeckel ، حيث عـرف الايكولوجيا

---

(1) A. Pearse; «Metropolis and Peasant : The Expansion of the Urban-Industrial Complex and the Changing Rural Structure»; in T. Shanin; (ed.) Peasant and Peasant Societies; Penguin; 1971; pp. 69-80.

(٢) يمكننا الحصول على شواهد امبيريقية متفرقة تؤيد ذلك اذا ما رجعنا الى محمود عوده ، الفلاحون والدولة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ •

البيولوجية بأنها ذلك العلم الذى يدرس التساند المتبادل بين النباتات والحيوانات التى تعيش معا فى منطقة طبيعية[١] • أما المفاهيم الاساسية التى يعتمد عليها هذا العلم فاهمها : الموطن ، والتدرج ، والتكافل ، والمنافسة ، والغزو ، والتتابع • ولقد ظهرت فكرة تطبيق الاتجاه الايكولوجى على العلاقات البشرية لاول مرة فى أوائل القرن العشرين ، وخاصة فى مؤلف تشارلز جالبن Galpin« التشريح الاجتماعى لمجتمع محلى ريفى » (١٩١٥) • وعلى الرغم من أن جالبن لم يستخدم مصطلح الايكولوجيا ، الا أنه جمع بيانات عن أسر تعيش فى منطقة ريفية فى ولاية ويسكنسون تتناول الاماكن التى يبتاع منها أفراد الاسر السلع التى يحتاجونها ، والبنوك التى يودعون فيها أموالهم ، والكنائس التى يختلفون اليها لاداء فرائضهم ، والمدارس التى يتوجه اليها الابناء لتلقى دروسهم • ومع أن مناطق النشاطات المختلفة التى درسها جالبن لم تكشف عن وجود « تطابق مكانى دقيق » ، الا أن شواهده قد أكدت الاعتقاد الذى يذهب الى أن المجتمع يتضمن « مناطق طبيعية » natural areas تلعب دورا أساسيا فى تحديد النشاطات الانسانية • وخلال العام ذاته (١٩١٥) نشر روبرت بارك Park مقالا شهيرا أوضح فيه أن المدينة تعد ظاهرة طبيعية وأنها تنقسم الى مناطق صناعية وتجارية وسكنية ، كما أن السكان الذين يتماثلون فى خصائصهم الاجتماعية والثقافية يميلون الى التجمع فى مناطق معينة من المدينة[٢] • ولقد أصبحت كتابات بارك بعد ذلك من الدعائم الاساسية التى استندت اليها الدراسات الايكولوجية • ففيما بين سنتى ١٩٢١ و ١٩٢٣ قام ماكينزى Mackenzie (بالاشتراك مع روبرت بارك وارنست بيرجس Burgess) باجراء دراسة عن مناطق المدينة بنفس الطريقة التى

---

(١) للتعرف على الدلالات المختلفة لمفهوم الايكولوجيا انظر : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عوده وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٢١٤ — ٣١٩ .

(1) E. E. Bergel; Urban Sociology; McGraw Hill Book Company; N. Y; 1955; pp. 75-91.

اتبعها جالبن • وبذلك يكون ماكينزى من أوائل علمـاء الاجتماع الـذين استعانوا بمفاهيم الايكولوجيا البشرية فى بحث امبيريقى •

وخلال الربع الثانى من القرن العشرين اتخذت دراسات الايكولوجيا اتجاهات مختلفة وأصبحت على درجة من التنوع تمكننا من القول بأنها قد شكلت بالفعل « مدرسة فكرية متميزة » • ففى سنة ١٩٣٠ تأكد التمييز بين التفاعل الايكولوجى بمعناه المحدود والتفاعل الاجتماعى بوجه عام ، كما أن مجرد وصف الظواهر الانسانية فى ضوء التوزيع المكانى لم يعـد كافيا من وجهة نظر علم الاجتماع • على أن دخول مصطلح الايكولوجيا الى مجال علم الاجتماع لم يكن بمثل هذه البساطة • اذ تحفظ عدد كبير من علماء الاجتماع على تطبيق هذا المصطلح على الظواهـر الاجتماعية لان من شأنه تجاهل أو اغفـال أهمية العوامل الاقتصـادية والاجتماعية فى تشكيل المجتمعات • وبرغم هذه التحفظات الا أن مصطلح الايكولوجيا قد لفت انتباه علماء الاجتماع الى الحقيقة التى مؤداها ، أن أفراد المجتمع يعيشون فى اطار بيئة مكانية • ومع أن هناك عوامل اجتماعية تؤثر فى هذه البيئة ، الا أنها تبدو وكأنها « طبيعية » ، بمعنى أن الافراد يعتمـدون عليها ، بينما هى تمارس عليهم تأثيرا كبيرا وعلى الاخص فيمـا يتعلق بمعتقداتهم[1] • ومن بين عناصر الحياة الحضرية نجـد عنصرى السكن وظروف العمل يتخذان شكلا طبيعيا الى حد كبير ، بمعنى أنهما لا يتحددان بقرار ادارى بقدر ما يتطوران بطريقة تلقائية • واذا كانت هـذه العناصر تؤثر على السلوك والاتجاهات فانها تتأثر بدورها بأسلوب حياة الناس • وانطلاقا من هذه النقطة يبدأ عالم الاجتماع بدراسة أكبر عدد ممكن من عناصر الحياة الحضرية كالشوارع ، والمساكن ، وأماكن العمل ، والاندية ، وأقسام الشرطة ، ومحطات المواصلات ، ومبانى الصحف الكبرى • ولقد

---

(١) هاينز موس ، الفكر الاجتماعى : نظرة تاريخية عالمية ، ترجمة السيد الحسينى وجهينه سلطان العيسى ، دار المعـارف ، ١٩٨٠ [وعـلى الأخص الفصل الرابع عشر] •

حاولت دراسات سوسيولوجية عديدة ربط الظواهر الاجتماعية والثقافية « بالمناطق الطبيعية » فى المدينة • ومن أشهر هذه الدراسات تلك التى تناولت الجريمة والانتحار والتفكك الاسرى فى أحياء المدينة المختلفة وعلى الاخص الفقيرة منها • ويبدو أن الدراسات الايكولوجية الحديثة قد بدأت تنظر الى الايكولوجيا من منظور واسع نسبيا • فلقد ذهب هاولى Hawley ــ الذى يعد من أشهر علماء الايكولوجيا الحضرية ــ الى أن المحدد الاساسى للتنظيم الاجتماعى والسلوك هو التأثير الذى يحدثه المجتمع الحضرى ، ذلك المجتمع الذى يتميز بكبر الحجم ، وشدة الكثافة ، وزيادة التباين ، وتعدد الادوار الاجتماعية ، وشدة الحراك الاجتماعى[1] •

وتعد نظرية لويس ويرث Wirth من أشهر النظريات السوسيولوجية التى تنطلق من مفاهيم ايكولوجية معتدلة • ففى مقال شهير بعنوان « الحضرية كأسلوب فى الحياة »[2] (١٩٣٨) ذهب ويرث الى أن نمو المدينة وتنوعها يؤديان الى اضعاف العلاقات الاجتماعية بين سكانها ، وأن أساليب الضبط الرسمى فى المدينة ما تلبث أن تحل محل أساليب الضبط غير الرسمى القائمة على العرف والتقاليد • ويتصل ذلك بظهور الجماعات والثقافات الفرعية المتعددة المتباعدة مكانيا • وبنمو حجم المدينة تقل فرص العلاقات الشخصية بين سكانها • اذ ما تلبث هذه العلاقات أن تتصف « باللاشخصية » و « السطحية » و « الانتقالية » و « الانقسامية » • ومعنى ذلك أن العلاقات الاجتماعية فى نظر الحضريين هى مجرد وسائل لتحقق غايات خاصة • وبزيادة تقسم العمل والتخصص فى المدينة ،

---

(1) A. Hawley; Human Ecology; N. Y; 1950; Quinn; Human Ecology; N. Y; 1950; G. Theodorson; Studies in Human Ecology; N. Y; 1961.

(2) L. Wirth; «Urbanism as a Way of Life» in P. Hatt and A. Reiss (eds); Cities and Society; op. cit.

وللتعريف على مزيد من التفصيل حول نظرية ويرث يمكن الرجوع الى محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، المرجع السابق .

تتخذ العلاقات الاجتماعية طابعا صوريا لاشخصيا ، مما قد يتطلب ظهور أخلاقيات مهنية منظمة للسلوك المهنى • واذا كانت زيادة تقسيم العمل تؤدى الى نمو التجارة ، فان ذلك قد يسهم أيضا فى اضعاف التوازن الاجتماعى • وبنمو حجم المدينة يصبح من الصعب على كل سكانها الاقامة فى منطقة واحدة ، فتنمو الاحياء المختلفة المتباعدة وبالتالى تلعب وسائل الاتصال الجماهيرى دورا كبيرا فى تحديد أفكار السكان واتجاهاتهم • ومن هنا تبدو النتائج الحتمية لزيادة الكثافة السكانية • فكلما زادت الكثافة السكانية فى المدينة ، ازداد التخصص والتباين بين أفرادها • أما نمط استغلال الارض فى المدينة فيتحدد فى ضوء المنافسة على الموارد المحدودة • وفى نهاية الامر نجد الجماعات المتشابهة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا تقطن مناطق سكنية أو أحياء واحدة • غير أن التفاعل الاجتماعى بين الحضريين الذين يؤدون أدوارا مختلفة قد يسهم فى الحد من التفاوتات الطبقية[١] • ونتيجة لذلك يبدو البناء الطبقى الحضرى فى المدينة أقل وضوحا وتحديدا • كذلك فان سكان المدينة قد يتعرضون لصراعات مختلفة بسبب ولائهم لجماعات متباينة قد تتضارب مصالحها • ويؤدى ذلك بسكان المدينة الى الانتقال الجغرافى من منطقة لاخرى • ومع ذلك كله فان المدينة تميل فى نهاية الامر الى التعبير عن ثقافة حضرية عامة تتجاوز كل الثقافات الفرعية التي تعبر عن الجماعات الاجتماعية المختلفة[٢] •

هذا وقد تعرضت نظرية ويرث لانتقادات عديدة استنادا الى اعتبارات نظرية وواقعية[٣] • وقبل مناقشة هذه الانتقادات يتعين علينا

---

(1) Ibid; pp. 30-31.

(2) Ibid; pp. 32-34.

(٢) جدعون جوبرج ، علم الاجتماع الحضرى المقارن ، ترجمة السيد الحسينى ، محمد الجوهرى وآخرون ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٢ .

(3) See H. Gans: «Urbanism and Suburbanism as Ways of Life : A Re-Evaluation of Definitions»; in A. Rose: Human Behavior and Social Processes. Houghton Mifflin; 1962.

توضح بعض القضايا الهامة التى يجب أخذها فى الاعتبار عند تقييم نظرية لويس ويرث • فالمحقق أن ويرث كان واعيا كل الوعى بأن « الحضرية كأسلوب للحياة » ليست مميزة فقط لسكان المدينة ، اذ أنه قد أشار الى التأثير الذى يمكن أن تحدثه المدينة خارج حدودها الادارية أو الجغرافية • كذلك فان كتابات ويرث تشير الى أنه كان مدركا تماما أن حجم المدينة ليس المؤشر الوحيد الدال على درجة تحضرها • فقد يكون سكان الضواحى أكثر تحضرا من سكان المدينة • ومعنى ذلك أن ويرث لم يستبعد الضواحى من الخضوع « للحضرية كأسلوب للحياة » • فضلا عن ذلك كان ويرث واضحا تماما عندما ذهب الى أن مفهوم « الحضرية » ــ كما استخدمة ــ لا يشير بالضرورة الى كل خصائص المدينة ، حيث نجده يؤكد أن الخصائص الحضرية التى استشهد بها كانت بمثابة وسائل لفهم الحياة الحضرية بكل ما تنطوى عليه من تنوع وشمول • وفضلا عن ذلك فان ويرث لم يكن يهدف بمقاله تقديم تصنيف شامل للمدن • فلقد أشار بطريقة عابرة الى الدور الذى يلعبه موقع المدينة وحجمها ووظيفتها فى تحديد طابعها • وكانت هذه الاشارة فى سياق التدليل على « الحضرية » كأسلوب مميز للمدن بغض النظر عن المتغيرات الاخرى • وأخيرا فان ويرث لم يكن يقصد التدليل على وجود علاقات سببية بين عناصر الحياة الحضرية • بعبارة أخرى لم يكن يهدف البرهنة على أن الحجم والكثافة والتباين هى المتغيرات الاساسية المحددة لكل الظواهر الحضرية •

وفى ضوء هذا التوضيح يمكننا تناول أهم الانتقادات التى وجهت الى نظرية لويس ويرث • وأول هذه الانتقادات أن التعميمات التى تضمنتها هذه النظرية لا تنطبق على كل المدن المعاصرة • اذ تبدو أكثر انطباقا على المدن الصناعية وحدها • ويتصل هذا النقد بالجزء الأخير من مقال ويرث الذى تناول فيه تأثير التحضر على الاسرة[1] • والواقع أن من الصعب فهم

---

(1) R. N. Morris; Urban Sociology; George Allen and Unwin L. T. D; London; 1968; p. 22.

تعميمات ويرث دون الاشارة الى الظروف الاقتصادية التى كانت تمر بها الولايات المتحدة خلال ثلاثينيات هذا القرن والتى أهمها « الكساد العظيم »، وتدفق موجات الهجرة من مختلف دول العالم • فخلال تلك الفترة أبدى كثير من المثقفين الامريكيين قلقهم البالغ على ظروف التفكك الاجتماعى والتباين الثقافى والكساد الاقتصادى التى تعرضت لها الولايات المتحدة[1] • ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير المنطلقات الفكرية لنظرية ويرث • كذلك انتقد بعض الدارسين المعاصرين نظرية ويرث لانها قد أكدت أن العلاقات الاجتماعية فى القرية تتخذ طابعا أوليا ، بينما تتخذ فى المدينة طابعا ثانويا • ففى بريطانيا أوضحت دراسة حديثة نسبيا أن العلاقات الاجتماعية فى المناطق الريفية تتصف بالتنوع والتعقيد وأنها لا تختلف فى هذا المجال عن تلك التى توجد فى المناطق الحضرية • ففى المناطق الريفية قد يلعب القرويون أدوارا مختلفة ومتنوعة : فالى جانب علاقات الجيرة قد يدخلون فى علاقات مصاهرة عن طريق الزواج ، وقد يترددون على كنائس مختلفة وينتمون الى جماعات عمرية متباينة ، فضلا عن انتمائهم الى نوادى متباعدة • وقد يؤدى ذلك الى طبع هذه العلاقات الاجتماعية الريفية بطابع ثانوى • ولقد أوضح مان Mann أن التحول من المجتمع الريفى الى المجتمع الحضرى لايؤدى بالضرورة الى احلال العلاقات الثانوية محل العلاقات الاولية • كذلك أوضح أوسكار لويس Lewis أن من الصعب وضع المجتمعات الريفية والحضرية على متصل يعبر عن الانتقال من العلاقات الاولية الى العلاقات الثانوية[2] •

أما أقوى الانتقادات التى وجهت لنظرية ويرث فهو ذلك الذى يذهب

---

(1) A. Hawley; Human Ecology; op. cit; pp. 422 ff.

(2) O. Lewis; «Further Observations on the Folk-Urban Continuum....» in P. Hauser and L. Schnore (eds) The Study of Urbanization; op. cit. p. 497 ff.

الى أن وصفه للعلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة يتصف بالبساطة والتبسيط الشديدين • فبينما يؤكد (أى ويرث) أن المدينة تتصف بالتباين الشديد نجده يصف أنماط السلوك فى ضوء تصورات أولية لا تكاد تعبر عن الواقع الفعلى • فلقد أوضح بعض الباحثين المعاصرين أن العلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة تتصف بالتنوع أكثر مما تتصف باللاشخصية • واذا كان الشخص الحضرى لديه فرصا أفضل من نظيره الريفى فى اقامة علاقات ثانوية ، الا أن لديه أيضا (الحضرى) فرصا أكثر من نظيره الريفى فى اقامة علاقات أولية مستندة الى الاختيار الشخصى[١] • ومعنى ذلك أن الحضرى قد تكون لديه فرصة الامتناع عن التردد على المسجد أو الكنيسة دون أن يوصف سلوكه بصفات سلبية ، كما أنه يستطيع التردد على مكان العبادة الذى يفضله دون غيره • واذا كان الحضرى قد يظل دون أصدقاء داخل المدينة ، الا أن لديه مجالا واسعا لاختيار الاصدقاء[٢] • ويعد أوسكار لويس Lewis من أظهر الذين عالجوا هذه القضية بوضوح قاطع • فهو يذهب الى أن المدينة ــ على خلاف القرية ــ تتيح للفرد مدى واسعا من البدائل ، كما أن الجماعات الحضرية تختلف فيما بينها فى تقييم هذه البدائل والاختيار بينها[٣] • وفضلا عما سبق وجه بعض علماء الاجتماع الى نظرية ويرث انتقادا أساسيا مؤداه اغفال العلاقات المتبادلة بين المدينة والنسق الاجتماعى ــ الثقافى الشامل التى هى جزء منه • وربما كان ويرث قد تأثر فى ذلك بكتابات بعض المؤرخين من أمثال بيرن Pirenne الذى أكد فكرة الاستقلال الاجتماعى والسياسى للمدينة الاوربية خلال العصور الوسطى ، وهو نمط من المدن يندر وجوده الآن • وقد تكون المراكز الحضرية قد حققت استقلالها السياسى فى فترات تاريخية معينة • أما المدن

---

(1) R. N. Morris; Urban Sociology; op. cit; p. 24.

(2) P. Mann; An Approach to Urban Sociology: Routledge and Kegan Paul; 1965; pp. 100-102.

(3) O. Lewis; «Further Observations....»; op. cit; p. 504.

المعاصرة فلا تعدو أن تكون أنساقا فرعية تحكمها عوامل خارج نطاقها[١] .
واذا كان ويرث قد أبرز صور التفكك الاجتماعى المصاحبة لنمو المدن ، فاننا نشير — من ناحية أخرى — الى أن المدن قد ظلت عبر تاريخها مركزا للاتصال ، ومصدرا للتغير الثقافى ، وموطنا للمواهب الخلاقة . ومن خلال دقة التنظيم السياسى الحضرى ، ونفوذ وسائل الاتصال الجماهيرى ، وانتشار التعليم بين مختلف القطاعات تحقق المدينة وحدتها بدرجة لا تقل قوة عن الوحدة التى تحققها القرية .

ولقد اهتم علماء الايكولوجيا الحضرية بدراسة العمليات البيئية أو الايكولوجية فى محاولة لصياغة نظريات مفسرة لديناميات المدينة . ومن بين هذه العمليات : التركز Concentration والتشتت Deconcentration والمركزية Centeralization واللامركزية Decenteralization ، والغزو Invasion والتتابع Succession . أما مفهوما التركز والتشتت فيشيران الى التغيرات التى تطرأ على توزيع السكان عبر المكان نتيجة للهجرة من منطقة لاخرى أو نتيجة للاختلاف فى معدلات الزيادة الطبيعية . ومن الواضح أن هذين المفهومين يعبران عن حركتين فى اتجاهين متعارضين . فالعوامل التى قد تؤدى الى التركز تختلف عن تلك التى تؤدى الى التشتت . ولقد أوضح بعض الدارسين أن المدن الغربية فى بداية نشأتها كانت تعرف اتجاها نحو التركز ، بينما بدأت تشهد اتجاها نحو التشتت حينما ازدادت نموا ونضجا . ويتم قياس عمليتى التركز والتشتت فى ضوء الكثافة السكانية ، كما أن هاتين العمليتين تتأثران كثيرا بدرجة القرب من وسائل المواصلات وتباين القدرة الاقتصادية ، فضلا عن أنواع استخدام الارض . ولقد أوضح دنكان Duncan وآخرون أن معدل التركز يزداد فى المناطق التى تتطور نتيجة لارتفاع معدلات النمو السكانى فيها . وبمرور الوقت ترتفع أثمان الارض نتيجة لدخول المشروعات الاقتصادية مما قد يسهم فى ظهور وسائل تلقائية من شأنها تنظيم النمو

---

(١) جدعون جوبرج ، « علم الاجتماع الحضرى المقارن » المرجع السابق ، ص ٢٤ .

السكانى لهذه المناطق[١] • أما التشتت فيتمثل فى انخفاض نسبة السكان الذين يعيشون فى قلب المدينة • ولقد أشار هاولى Hawley الى أن الاتجاه نحو التشتت قد ظهر فى المدن الامريكية خلال عشرينيات القرن العشرين ، ثم ما لبثت ان شهدت بعد ذلك نموا هائلا فى حجم الضواحى[٢] • ويبدو أن الازدحام السكانى فى المناطق الداخلية من المدينة كان أحد العوامل الطاردة التى ساعدت على الاقامة فى الضواحى أو الأطراف ، كما أن معدل التشتت يزداد فى المدن الكبرى اذا ما قورنت بالمدن الصغرى بسبب الازدحام السكانى الضاغط[٣] • وفى كل الاحوال فان الاتجاه نحو التشتت يرتبط بوجود شبكة متطورة من المواصلات ، ووجود هياكل أساسية تمكن الضواحى من التطور المستقل ، ونمو طبقة وسطى حضرية تجد فى الضواحى مزايا يصعب الحصول عليها داخل المدينة •

أما عمليتا المركزية واللامركزية فتشيران الى مدى تركيز أو عدم تركيز المشروعات الصناعية والتجارية داخل المدينة أو خارجها • ومعنى ذلك أن المركزية ترتبط أساسا بالنشاطات الصناعية والتجارية والادارية • أما قياسها (أى المركزية) فيتم من خلال التعرف على مدى سيطرة المدينة على هذه النشاطات • والواقع أن زيادة تقسيم العمل وضرورة الحاجة الى التنسيق بين النشاطات المختلفة قد أديا الى ظهور الاتجاه نحو المركزية • ومن بين العوامل الهامة المؤدية الى المركزية المزايا التى يتيحها وجود عدد كبير من الافراد فى موقع واحد من مواقع العمل ، فضلا عن متطلبات الانتاج الكبير التى أدت الى زيادة حجم المشروعات الصناعية وضرورة التقارب المكانى بين المصانع والاسواق لما يتيحه ذلك من خفض تكاليف

---

(1) B. Duncan et al; «Patterns of City Growth»; American Journal of Sociology; Vol. 67; 1962.

(2) A. Hawley; Human Ecology; op. cit; pp. 422 g.

(3) A. Boskoff; The Sociology of Urban Regions; New York : Appleton-Century Crofts; 1962; p. 11.

النقل والمواصلات • ويبدو ان الاتجاه نحو لامركزية الصناعة والتجارة قد ظهر فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الاتجاه نحو تشتت السكان • أما مبررات ذلك فأهمها : استمرار أثمان المواقع الصناعية ، وصعوبة الحصول على مواقع صناعية تتلاءم مع الاحتياجات الصناعية ، وصعوبة النقل والمواصلات داخل المدينة ، وعدم وجود فرص الاتساع المكانى • وعلى الرغم من أن الضغوط الشديدة التى تمارسها العوامل المختلفة من أجل الاتجاه نحو المركزية ، الا أن المدن الغربية قد شهدت منذ مطلع ثلاثينيات هذا القرن اتجاها مقابلا نحو اللامركزية • وربما كانت ظروف « الكساد العظيم » من أهم العوامل الدافعة الى ذلك ، خاصة وأنها قد فرضت قيودا عديدة على بعض المشروعات الصناعية الصغيرة الحجم[١] • بيد أن تحسن وسائل النقل وأساليب الاتصال ، وتطور فنون نقل المعلومات من خلال الحاسبات الآلية قد أديا الى الحد من الاتجاه نحو المركزية • واذا ما تأملنا موقف الدول النامية من المركزية واللامركزية نجد أن مشروعاتها الصناعية الضخمة تميل الى الاتجاه نحو ضواحى المدن الكبرى ، بينما تظل المشروعات الصناعية الصغيرة مركزة فى المناطق الحضرية الداخلية[٢] • وفى كل الاحوال فان الدول النامية — بسبب قلة مواردها المالية — تحاول الافادة من الهياكل الاساسية للمدن الكبرى باقامة مشروعات صناعية ضخمة تستفيد من خدمات الكهرباء والماء والمواصلات التى تتيحها هذه المدن[٣] •

واذا انتقلنا الى مناقشة مفهومى الغزو والتتابع ، لاحظنا صلة قوية بينهما حتى أننا لا نستطيع معالجة أحدهما بمعزل عن الآخر • والغزو — فى أبسط معاينه — هو نفاذ جماعة سكانية الى منطقة منفصلة كانت تؤدى

---

(1) C. Wright Mills; The Power Elite. O. U. P; 1956.

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، ترجمة محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٧ .

(٣) فيلب هاوزر ، مشكلات التحضر السريع ، ترجمة السيد الحسينى ، فى دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

من قبل وظيفة مختلفة أو كانت تشغلها جماعة سكانية مغايرة[١] • ولعل أبسط مثال يمكن ان يوضح لنا عملية الغزو هو تحول منطقة حضرية راقية إلى منطقة حضرية شعبية بسبب انتقال أفراد الطبقة الدنيا للاقامة فيها • على أن عملية الغزو ما هى الا مرحلة أولى فى دورة التتابع • أما أهم العوامل التى تؤدى الى عملية الغزو فهى : تحركات السكان ، والتوسع من أحد أجزاء منطقة الى جزء آخر ، والتغيرات التى تطرأ على شكل وخطوط المواصلات ، وتهدم المساكن أو تعرضها للسقوط بسبب تدهور حالتها أو تغيير استخدامها ، وانشاء مبان عامة أو خاصة ذات خصائص جاذبة أو طاردة ، وادخال أنواع جديدة من الصناعات ، وظهور تغيرات اقتصادية من شأنها اعادة توزيع الدخل القومى • والملاحظ أن غزو جماعة سكانية لمنطقة جماعة سكانية أخرى لايتم بطريقة فورية وخلال فترة زمنية قصيرة • فقد يسبق الغزو ضغوط عديدة تمارسها الجماعة الغازية على سكان الجماعة المقهورة • وخلال عملية الغزو تنشأ مقاومة من جانب هؤلاء السكان قد تتمثل فى الامتناع عن بيع أراضى البناء وعدم قبول السكان الجدد بسهولة ويسر • ولقد اهتم بعض علماء الايكولوجيا الحضرية بدراسة عمليتى الغزو والتتابع فى المدن الغربية بعامة والامريكية بخاصة • اذ يشير هاولى الى أن دراسة عملية الغزو قد تكون أيسر بكثير من دراسة عملية التتابع[٢] • والملاحظ أن كثيرا من المدن الامريكية قد شهدت خلال القرن العشرين عمليات غزو وتتابع عديدة • فلقد أوضحت دراسات فيرى Firey وشو Shaw ومكاى Mckay أن الجماعات العنصرية (على الاخص الزنجية) قد غزت كثيرا من الاحياء الحضرية فى المدن الأمريكية الكبرى ، مما دفع السكان القدامى لهذه الاحياء الى الانسحاب منها والبحث عن

---

(1) S. Queen and D. Carpenter; The American City; New York; McGraw-Hill Book Company; 1953.

(2) A. Hawley; Human Ecology; op cit.

أحياء أكثر رقيا[١] • كذلك أوضح هويت Hoyt أن الحى الذى ترتفع فيه القيم الايجارية للمساكن قد يظل لفترة طويلة بمناى عن عملية الغزو من الجماعات الاقتصادية الدنيا • واذا ما كانت الاحياء التجارية فى مدينة معينة محاطة بمجموعة من الاحياء الفقيرة ، فان الانتقال الى الاولى (التجارية) قد يكون أمرا محتما بعد فترة معينة • ويمكننا أن نشير أيضا الى دراسة كوين Quinn التى أوضح فيها غزو الزنوج لاحياء البيض والمقاومة المستميتة التى صاحبت هذا الغزو • وفى دراسة أخرى عن تأثير غزو الزنوج على أسعار المنازل ، اتضح أن البيض قد اعتبروا الزنوج سببا فى انخفاض مستوى السلع فى الأحياء ورخص أسعارها ، بينما عبر الزنوج عن استيائهم من ارتفاع أسعار هذه السلع بما لا يتناسب مع قدراتهم الشرائية[٢] • وفى مدن الدول النامية تتخذ عملية الغزو صورا عديدة من بينها نمو أحياء واضعى اليد وعلى الاخص فى أطراف المدينة ، وتحول بعض الاحياء السكنية الى أحياء تجارية بسبب ضغوط المكان •

وخلال فترة تكوين مدرسة الايكولوجيا الحضرية سادت وجهة نظر مؤداها ، أن بالامكان فهم السلوك الاجتماعى الحضرى فى ضوء علاقته بنمط استغلال المكان • وهذا يعنى ــ للوهلة الاولى ــ أن هذا السلوك محكوم ــ بالضرورة ــ بعملية المنافسة من أجل الحصول على الاماكن النادرة ذات القيمة العالية • أما النتيجة النهائية لهذه المنافسة فتتحدد فى ضوء امكانيات الاطراف المتصارعة سواء على المستوى الاقتصادى أو السياسى • غير أن علماء الايكولوجيا الحضرية المعاصرين قد بدأوا يهجرون تلك المفاهيم التى تبالغ كثيرا فى الدور الذى تلعبه المصادر الاقتصادية فى تفسير المنافسة على استغلال الارض • فلو تبنينا المفاهيم الاقتصادية الجامدة لصعب

---

(1) See for Example : W. Firey; Land Use in Central Boston; Harvard University Press; 1947· A. Hoyt; One Hunderd Years-of-Land-Values in Chicago; Chicago; Chicago Univ. Press; 1958.

(2) R. Morris; Urban Sociology; op. cit; p. 1111.

علينا تفسير وجود الحدائق العامة والمبانى الضخمة والمواقع التاريخية والهيئات الخيرية داخل أرقى مناطق المدينة • كذلك فان أهمية المفاهيم الاقتصادية الخالصة قد تقل كثيرا فى الحالات التى تكون فيها القرارات السياسية ذات تأثير بالغ على نمط النمو الحضرى[1] • فخلال الحرب الفيتنامية خضعت مدينة سايجون بأكملها للاعتبارات الدفاعية • وبنفس الكيفية نجد كثيرا من المؤسسات الدينية والتعليمية الهامة تشغل مواقع استراتيجية داخل المدينة ، على الرغم من حاجة المشروعات الصناعية المحققة للربح لهذه المواقع •ولا يعنى ذلك أننا نقلل من دور العوامل الاقتصادية فى تحديد النمط الايكولوجى للمدينة ؛ اذ أن هذه العوامل ــ الى جانب عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية أخرى ــ تساعدنا فى تحديد هذا النمط الايكولوجى وتغيراته عبر الزمان • وعلى الرغم من أن بعض المفاهيم الايكولوجية ماتزال بحاجة الى مزيد من التحديد والاختبار الواقعى ؛ الا أنها قد وجهت أنظار كثير من الدارسين الى أهمية التنظيم المكانى كأحد الابعاد الهامة للمدينة كنسق اجتماعى[2] • ومن خلال المفاهيم الايكولوجية تمكن بعض علماء الاجتماع والايكولوجيا الحضرية من دراسة الجوانب الدينامية للمدن وعلى الاخص العمليات الايكولوجية (كالتركز ، والمركزية ، والغزو ، والتتابع) والاجتماعية (كالتكيف ، الهجرة ، والتمثل الثقافى) • لقد ظل علماء الاجتماع لفترة طويلة يهتمون بدراسة الجوانب البنائية الاستاتيكية للمدينة حتى بدأ علماء الايكولوجيا الحضرية يبدون اهتماما بتحليل الجوانب الوظيفية الدينامية للمدينة • ومن خلال التكامل بينهما استطاعت الدراسات الحضرية تحقيق قدر كبير من التقدم خلال العقود الاخيرة •

وفضلا عما سبق أبدى علماء الايكولوجيا الحضرية اهتماما كبيرا بدراسة الضوابط الايكولوجية للمدينة وعلى الاخص فيما يتعلق بالحجم ،

---

(1) W. Firey; Man, Mind and Land; Free Press; 1960.
(2) N. Morris; Urban Sociology; op. cit; p. 113.

وتوصلوا فى هذا المجال الى عدد من القوانين الهامه • هناك أولا : قانون المضاعفات الذى يعنى زيادة عدد الوظائف التى تؤديها المدينه • ويفترض هذا القانون أن هناك وظيفة أساسية تؤديها المدينه ، لكنها ما تلبث بنمـو حجمها أن تؤدى وظائف أخرى مما يضاعف من نموها • وهناك ثانيا : قانون وراثة الحجم الذى ينجم عن تصارع المدن فى الاقليم من أجـل الحجم والضخامة • وتحاول كل مدينة الافادة من حجمها الحالى لتحقيق نمـو لاحق • فكلما كانت المدينة أكبر حجما ، كان معنى ذلك أنها تقدم فرصـا أكبر للسكان ، وأنها أقدر على مواجهة أى زيادة سكانية • وبذلك تتداعى الوظائف ويتضخم الحجم باطراد حتى نصل فى النهاية الى نقطة قد يصعب فيها تعليل التضخم المطرد فى حجم المدينة بأسباب أو ضروريات واضحة أو مفهومة ، ويصبح المبرر الوحيد للحجم اللاحق هو مجرد الحجم السابق• وبفضل هذا النجاح « الحجمى » تستطيع المدينة أن تخفى أو تعالج أيا من عيوبها ونقاط ضعفها الاصلية[١] • وتشير بعض الدراسات الى أن أعظم المدن نموا هى أكبرها حجما ؛ أى أن الحجم يورث الحجم • ويصل بعض المتطرفين الذين يؤيدون فكرة النمو المضطرد فى الحجم الى أن جميع مظاهر العالم المادى تتناسب تناسبا طرديا مع الكتلة (أى حجم المدن) ، وعكسيا مع المسافة (أى البعد عن المدن) • ولو صدقت هذه الفكرة لكان معناها أن تظل المدن الكبرى تبتلع المدن الصغرى بالتدريج حتى تتجمع كلها فى مدينة واحدة • وهناك ثالثا : قانون الحجم والتباعد الذى يستند الى مسلمـة الفقار الصغير واثراء الكبير • ويذهب أصحاب هـذا القانون الى أن أول وأشد تأثير لمدينة ناجحة تتضخم سيسرى ــ بطبيعة الحال ــ على أقرب المدن لمجالها ويقل بالتدريج بالنسبة للمدن الابعد منها[٢] ؛ أى أن المدينة

---

(١) جمال حمدان ؛ جغرافية المدن ؛ عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعـة الثانية ، ١٩٧٧ ، ص ٢٦٥ .

(2) See Martin J. Beckman; «City Hierarchies and the Distribution of City Size»; Economic Development and Cultural Change; 6 (1958); pp. 243-248.

النـاجحة انما تتضخم ــ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ على حساب المدن المحيطة ، وأن للمدينة الضخمة تأثيرا بـالغا على أحجـام المدن المجاورة • وعلى الرغم من صعوبة تحديد السبب والنتيجة (أو الفاعل والمفعول بـه) فيما يتعلق بتأثير كل من الحجم والتباعد ، الا أننا نعتقد أن العلاقة بينهمـا هى علاقـة المضـاف والمضـاف اليه • ولقـد عبر جيفرسون Jefferson تعبيرا قويا عن العلاقة العكسية بين الحجم والمسافة يتمشى مع قانون الغاب حين قال : إن المدن الكبرى كالاشجار العملاقة فى الغاب ، تحرم الاشجار الصغرى من الوصول الى الضوء وتقضى عليهـا بـالقزمية وضعف النمو • فهى تميل الى ان تنتقص من نمو وحجم المدن الصغيرة المجاورة التى تقـع فى « ظلها » • وهناك رابعا وأخيرا : قانون المدينة الاولى Primate city وهو قـانون نابع من القوانين السابقة • وطبقا لهذا القانون تظهر مدينـة أولى تحقق سيطرة على بقية المدن الاخرى حتى يبدو الفارق بينهما هائلا • وتحاول المدينة الاولى جمـع أكبر عـدد ممكن من الوظائف السـياسية والاقتصـادية والثقـافية ، والحصول على أكبر نصيب من الاستثمارات • ولقد وجد جيفرسون فى دراسة لـه تناولت ثمـان وعشرين دولة أن أكبر مدينة يزيد عدد سكانها عن ضعفى المدينة التالية مباشرة • وعادة ما تكون المدينة «الاولى» عـاصمة الدولـة ، وتعبر أكثر من أى مدينـة أخرى عن الكيان الوطنى ، وتساهم أكثر من غيرها فى توحيد الأمة[1] • ومع ذلك فان العواصم الاتحادية (الفيدرالية) تمثل شـذوذا عن هذه القاعدة مثـل واشنطن ، وكانبرا ، وبرن ، ولاهاى ، وكذلك العواصم المستحدثة مثـل أنقرة ، والرياض ، واسلام اباد ، ودلهى • كذلك تكون أولوية المدينـة الاولى أشد وأقوى كلما كانت الأمة قديمة الوحدة مثل بلجيكا وفرنسـا وألمانيا •

على أننى أعتقد ان أعظم انجازات علماء الايكولوجيا الحضرية تتمثل

---

(1) B. Hoselitz; «Generative and Parasitic Cities»; Economic Development and Cultural Change; 3 (April); 1955: pp. 278-294.

فى نظرياتهم عن النمط الايكولوجى للمدينة • ويمكننا أن نشير فى هذا المجال الى ثلاث نظريات أساسية • أما النظرية الاولى فهى تلك التى يطلق عليها « الفـرض الحلقى » Zonal Hypothesis • فلقـد ذهب إرنست بيرجس Burgess ـ صاحب هذه النظرية ـ الى أن المدينة الامريكية تتخذ فى نموها ـ ما لم تواجه عوامل معوقة ـ شكل خمس حلقات أو نطاقات متحـدة المراكز ومتناسقة الى حد ما • ويطلق بيرجس على أقرب الحلقات الى الداخل أو الى المركز حى الاعمال المركزى (CBD) حيث تـدور أكثر نشاطات المجتمع كثافة • أما الحلقة الثانية التالية التى تقع خـارج نطاق الحلقة الاولى فيطلق عليها بيرجس منطقة التحول بسبب تعرضها للتغير نتيجة إتساع الحلقة الاولى ، فضلا عن أنها (أى منطقة التحـول) تتميز بكثافة سكانية عالية ، وانخفاض ملحوظ فى الدخل الفردى ، وظهور التفكك الاجتماعى • أما الحلقة الثالثة فتضم منطقة سكنى العاملين ، خاصة الذين يعمـلون فى المهن الكتابية والصـناعية ، بينما تتألف الحلقة الرابعة من الفيلات وأحياء الاعمال المحلية • وأخيرا تقع الحلقة الخامسة خارج حدود المدينة حيث تشكل ضواحى منفصلة • وتمثل هذه الضواحى مناطق سكنية لذوى الدخول المرتفعة ، كما أنها قد تكون مقرا لبعض الاحياء المتخصصة[1] • ولقد تعرضت نظرية بيرجس لانتقادات عديدة • من ذلك ـ مثلا ـ أنه ليس من المحتم أن يكون حى الاعمال المركزى ذا شكل دائرى • إذ من الممكن أن يمتـد استخـدام الارض تجاريا بعيدا عن الطرق الممتدة من المركز • كذلك فان الصناعة لا توجد فقط فى المناطق الانتقالية ، وانما كذلك بالقرب من خدمات السكك الحديدية والخدمات المائية أينما كانت • وفضلا عن ذلك فان الاسكان المتخلف قد يوجد فى كثير من أجزاء المدينة ، وخاصة بالقرب من المواقع الصناعية[2] •

---

(1) Leo F. Schnore; «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; in P. Hauser and Schnore; The Study of Urbanization; op. cit; pp. 346-398.

(2) See M. Davie; «The Pattern of Urban Growth»; in G. P. Murdock (ed); Studies in the Science of Society; New Haven : Yale University Press; 1953; pp. 137-161.

وازاء الانتقادات العديدة التى تعرضت لها نظرية بيرجس ، نجد هومر هويت Hoyt ينشر فى سنة ١٩٣٩ نموذجا نظريا يحاول فيه تحديد النمط الايكولوجى للمدينة فى ضوء فكرة القطاع • ولقد أقام هويت نموذجه هذا استنادا الى فكرة مؤداها ، أن انتشار المناطق السكنية بأنواعها المختلفة يخضع لعملية توزيع دخول الافراد • لذلك نجده يقسم هذه المناطق الى ثلاث قطاعات رئيسية : الاول يضم العمال ذوى الدخول المحدودة والايجارات المنخفضة ، والثانى يضم الاغنياء ذوى الدخول الكبيرة والايجارات المرتفعة • أما القطاع الثالث فيضم مناطق النشاطات التجارية فى مركز المدينة • ويذهب هويت ــ معارضا فى ذلك بيرجس ــ الى ان النمو الحضرى يتم بأقصى سرعته على طول خطوط النقل الرئيسية وعلى طول الخطوط الاقل مقاومة [١] • غير أن هذا النموذج النظرى قد أكد أيضا أن النمو الحضرى يتحدد فى ضوء امتدادات النمط السائد من أنماط استخدام الارض • لذلك نجد هويت ينظر فى النهاية الى المدينة كدائرة ، والى المناطق المختلفة كقطاعات تشع من المركز ، وأن أنماط استخدام الارض المتماثلة تتكون بالقرب من المركز وتمتد الى الخارج •

وفى منتصف الاربعينيات صاغ هاريس Harris وأولمان Ullman نموذج النويات المتعددة multiple neclei model الذى يذهب الى أن نمو المدينة لايعتمد على نواة واحدة ، وانما على نويات متعددة • فهناك النواة الرئيسية فى مركز المدينة وهى منطقة النشاطات التجارية والخدمات الرئيسية ، وهناك نواة تجارة الجملة والصناعات الخفيفة بالقرب من النواة الرئيسية • كذلك توجد نواة الصناعات الثقيلة على أطراف المدينة • وحول هذه النويات تتوزع مناطق سكنية متنوعة بعضها للدخل المجدود وبعض آخر للدخل المتوسط وبعض ثالث للدخل المرتفع[٢] • أما مناطق الضواحى

---

(1) E. Bergel; Urban Sociology; op. cit; pp. 75-91.

(2) J. Palen; The Urban World; McGraw-Hill Book Company; N. Y; 1975; Chap. 5.

فتمثل نطاقا انتقاليا بين البيئة الحضرية والبيئة الريفية • على أن هاريس وأولمان قد أشار الى بعض العوامل التى تفسر ــ مجتمعة ــ قيام النويات وتباين مناطق استخــدام الارض • من ذلك أن تتطلب بعض النشاطات تسهيلات نوعية خاصة • فالمصانع ــ مثلا ــ تحتاج الى مساحات واسعة من الارض ، كما قد تتجمع بعض النشاطات المتشابهة معا لتتبادل الفائدة كما هو الحال بالنسبة لحى الاعمال المركزى • وفى بعض الاحيان تلجــأ بعض النشاطات ــ كالتخزين ــ الى المناطق ذات الايجارات المنخفضة مما قد يؤثر بالتالى على النمط العام لهذه المناطق •

•

وبالاضافة الى هذه النماذج النظرية الثلاثة ظهرت نماذج أخرى وان كانت أقل شهرة وذيوعا • فلقد قدم وليم ألونزو Alonso نموذجا ايكولوجيا يقوم على فكرة أولية هى ، أن استعمالات الارض تتباين طبقا لاثمانهــا وايجاراتها وذلك فى ضوء القرب أو البعد عن مركز المدينة • وهناك نموذج نظرى آخر يذهب الى أن نمط الاتصالات بين السكان هو العامل المحدد للطابع الايكولوجى للمدينة • اذ بالامكان النظر الى المدينة على أنها شبكة من العلاقات والاتصالات اليومية بين ســكانها بما فى ذلك البيع والشراء والانتقال اليومى من المناطق السكنية الى المناطق التجارية أو أماكن العمل• أما أحدث الاتجاهات الايكولوجية فى دراسة المدينة فهو ذلك الذى يعتمد على منهج تحليل النظم system analysis • وطبقا لهذا الاتجــاه تبــدو المدينة وكأنها نسقا من العلاقات المترابطة بين النشــاطات الاجتمــاعية والاقتصادية والثقافية والادارية • ومعنى ذلك أن المدينة تتألف من مجموعة من الانساق الفرعية المتبادلة التأثير والتأثير فى ضوء معطيات عديدة بعضها حضرى متصل بالمدينة والبعض الآخر اجتماعى مرتبط بالمجتمع ككل[١] • ومن خلال هذه الانساق الفرعية تتشكل الوحدة النهائية التى تقوم عليها

---

(١) القطب وابو عياش ، الاتجاهات المعاصرة فى الدرســات الحضرية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ص ١٩٨٠ ، ص ١١٢ .

المدينة • وخلال السنوات الاخيرة أبدى بعض علماء الايكولوجيا اهتماما كبيرا بأسلوب التحليل العاملى factorial analysis الذى يحاول حصر آلاف المتغيرات المؤثرة على إيكولوجية المدينة ، ثم تحديد الاهمية النسبية لكل منها (١) •

وقد يكون من المفيد أن نختتم هذه المناقشة ببعض الملاحظات حول الانماط الايكولوجية لمدن الدول النامية • فلقد لاحظنا أن النماذج التى صاغها علماء الايكولوجيا تتعلق أساسا بالمدن الغربية التى تختلف اختلافا كبيرا عن مدن الدول النامية • والواقع ان الدراسات التى حاولت اختبار هذه النماذج على مدن الدول النامية مازالت قليلة للغاية • ومع ذلك فان من الصعب القول بأن نموذجا بعينه يمكن أن يفسر النمط الحضرى لمدن الدول النامية • ففى بعض الاحيان تبدأ مدن الدول النامية باتخاذ النموذج الدائرى أو الحلقى ، ثم تتخذ النموذج القطاعى فى مرحلة لاحقة • وقد يظهر خلال عملية النمو الحضرى نويات تنمو بصورة مستقلة • ومعنى ذلك أن مدن الدول النامية قد تعبر عن النماذج النظرية الثلاثة فى آن واحد • أما تفسير ذلك فيعود الى الظروف التاريخية التى مرت بها هذه المدن • فالجانب الأكبر من هذه المدن قد نما فى غياب أية قوانين بلدية أو خطة حضرية محددة تضع حدودا على شغل المواقع وأنماط المساكن • وقد نستثنى من ذلك بعض الاحياء الراقية التى يعيش فيها الاجانب فى مدن الدول النامية(٢) • وفضلا عن ذلك نجد أن أحياء واضعى اليد فى هذه المدن قد أحدثت تغييرا كبيرا على أنماطها الايكولوجية ، مما يحول هذه الاحياء الى قطاعات حضرية تتميز بالتخلف الاجتماعى والفيزيقى • وفى بعض

---

(١) استخدمت جانيت أبولغد هذا الاسلوب فى احدى دراساتها عن مدينة القاهرة . انظر :

Janet Abu-Lughod; «Varieties of Urban Experience Contrasts : Coexistence and Coalescense in Cairo»; in Lapidus (ed) Middle Eastern Cities; California Univ. Press; 1969.

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

الاحيان نجد السور الدفاعى يحدد نمط نمو المدينة ، ثم ما يلبث النمو أن يتخذ شكل حلقات بعد نقل هذا السور الى موقع أبعد • كذلك فان موقع المدينة وموضعها قد يؤثران على نمط النمو الحضرى كما هو الحال بالنسبة لبعض المدن أمثال هونج كونج وبومباى ولاجوس والخرطوم • على أننا لا نقصد بذلك اطلاق هذه الاحكام على كل مدن الدول النامية • ففى أمريكا اللاتينية ــ مثلا ــ خضع النمو الحضرى فى مدنها للقواعد التى كانت تفرضها القوى الاستعمارية ، فضلا عن الاختلافات الثقافية بينها وبين مدن العالم القديم [١] •

ثانيا ــ السكان الحضريون :

منذ مطلع القرن التاسع عشر والعالم يشهد نموا سكانيا لم يسبق له مثيل ، حتى أن بعض الباحثين قد أصبحوا يفضلون اطلاق مصطلح « الثورة السكانية » على هذه الظاهرة الديموجرافية • غير أن النمو السكانى الذى طرأ على المدن كان أعلى بكثير من ذلك الذى طرأ على السكان بوجه عام • ويكاد ينطبق هذا النمط من النمو على المستويين العالمى والقومى • ومعنى ذلك أن العالم قد بدأ يشهد منذ مطلع القرن التاسع عشر ما يمكن أن نطلق عليه « ثورة حضرية » • فقبل سنة ١٨٥٠ لم يعرف العالم « دولة حضرية » بالمعنى الحديث لهذا المفهوم • وفى سنة ١٩٠٠ أصبحت بريطانيا « الدولة الحضرية » الوحيدة فى العالم • وبعد مرور ثمانين عاما تقريبا تحولت معظم الدول الاوربية الى دول صناعية ــ حضرية حيث ارتفعت فيها نسبة السكان الحضريين حتى تجاوزت نسبة السكان الريفيين [٢] • والملاحظ ان التحضر العالمى خلال القرن التاسع عشر كان ــ

---

(1) Leo F. Schnore: «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; in Philip Hauser and Leo Schnore (eds); The Study of Urbanization; op. cit; pp. 347-397.

(2) Kingsley Davis; «The Urbanization of the Human Population»; in Gerald Breese (ed.): The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 5-20.

الى حد كبير ــ نتيجة لتركز السكان فى مدن أوربا وأمريكا الشمالية • أما فى القرن العشرين فاننا نجد أن معدل التحضر العالمى قد تدعم وازداد نتيجة للزيادة السريعة فى نسبة سكان الحضر فى الدول النامية وعلى الاخص آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية • وبينما نجد الدول الصناعية المتقدمة تصل خلال هذا القرن الى « نقطة التشبع الحضرى » ، تشهد الدول النامية تدفقا سكانيا هائلا من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية[١] • وعلى الرغم من معدل التحضر العالى نسبيا فى الدول النامية، الا أن نسبة السكان الحضريين فيها مانزال ضئيلة نسبيا • ففى سنة ١٩٥٠ ــ مثلا ــ بلغ المتوسط العالمى للسكان الذين يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها عن ٢٠ر٠٠٠ نسمة حوالى ٢١٪ ، بينما لم يزد هذا المتوسط عن ٩٪ فى أفريقيا و ١٣٪ فى آسيا • كذلك اتضح أن ٢٦٪ فقط من سكان دول أمريكا اللاتينية يعيشون فى مدن يبلغ عدد سكانها ٢٠ر٠٠٠ نسمة • وعلى النقيض من ذلك نجد نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن مماثلة تصل فى أمريكا الشمالية الى ٤٤٪ وفى أوربا ٣٥٪ (باستثناء الاتحاد السوفيتى) ، وفى الاتحاد السوفيتى ٣١٪ •

وليس من الصعب علينا تفسير النمو الحضرى الهائل الذى شهده العالم منذ مطلع القرن التاسع عشر[٢] • اذ أن هناك عوامل عديدة أسهمت فى ظهور هذا النمو كزيادة فائض الانتاج الزراعى ، وتحسن وسائل النقل والمواصلات ، والاستقرار السياسى • ولقد أوضح جيرالد بريز Breese أن النسبة المئوية لزيادة مجموع سكان العالم قد ارتفعت من ٢٩٪ فى الفترة من ١٨٠٠ ــ ١٨٥٠ الى ٤٩٪ فى الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠ •

---

(١) فيلب هاوزر، مشكلات التحضر السريع ، ترجمة السيد الحسينى فى : دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) استخدم مصطلح النمو الحضرى للاشارة الى الزيادة المطلقة فى عدد سكان المدن بالنظر الى مجموع عدد السكان .

وفى مقابل ذلك ارتفعت نسبة سكان العالم الذين يعيشون فى مدن تعدادها ٢٠٫٠٠٠ فأكثر ارتفاعا يفوق بكثير ذلك الذى طرأ على الزيادة السكانية العالمية بوجه عام • فلقد بلغت نسبة زيادة سكان هذه المدن ١٣٢٪ فى الفترة من ١٨٠٠ ــ ١٨٥٠ ، بينما بلغت الزيادة فى مجموع سكان العالم خلال نفس الفترة ٢٩٪ • ثم وصلت نسبة الزيادة فى عدد سكان هذه المدن الى ٢٣٩٪ فى الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠ ، بينما كانت نسبة الزيادة فى مجموع السكان ٤٩٪ • واذا كان سكان العالم قد تضاعفوا ثلاث مرات فى الفترة من ١٨٠٠ ــ ١٩٦٠ ، فاننا نجد سكان المدن (٢٠٫٠٠٠ نسمة فأكثر) قد تضاعفوا أكثر من أربعين مرة ، كما تضاعف سكان المدن التى يتراوح تعدادها فيما بين ٢٠٫٠٠٠ نسمة و ١٠٠٫٠٠٠ نسمة حوالى ٣٥ مرة خلال نفس الفترة • أما سكان المدن التى يزيد عددها عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة فقد تضاعفوا خلال الفترة ذاتها حوالى أربعين مرة[١] •

على أن أهم ما يعنينا هنا هو التعرف على الدلالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تشير اليها هذه المعدلات الحالية من التحضر • لقد انقضت آلاف السنين قبل أن تتحول المدن الصغيرة التى عرفها العالم منذ فجر تاريخه الى مدن ضخمة • ومن الطريف هنا أن أوربا الغربية (التى شهدت النمو الحضرى الحديث) لم تكن هى التى شهدت فى الماضى السحيق البدايات الحقيقية للتحضر • فحتى العصور الوسطى كانت مجتمعات أوربا الغربية تخضع لنمط ريفى اقطاعى تقليدى • وربما كان هذا النمط سببا أساسيا فى سيطرة الطابع الطفيلى على المدن الاوربية الوسيطة [٢] • ونظرا لانخفاض الانتاجية الزراعية ، اتجهت بعض المدن الاوربية الى

---

(١) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة الدول النامية ، المرجع السابق ، ص ٥١ •

(2) P. Abrams and E. A. Wrigley (eds.); Towns in Societies : Essays in Economic History and Historical Sociology; Cambridge University Press; 1978. esp. Chap. I; pp. 9-33.

العمل بالتجارة والصناعات الحرفية • ومع ذلك فلقد كان النظام الاقطاعى أحد المعوقات الاساسية التى حالت دون نمو المدن الغربية • اذ أن هـذا النمو لم يكن له ليتحقق دون القضاء على النسيطرة الهائلة التى كـان يمارسها كبار ملاك الارض على الاقنان • على أن نمو التجارة والصناعة الحرفية كان من أبرز العوامل الضاغطة على النظام الاقطاعى • ذلك أن العمل بالنشاطات التجارية والصناعية كان يتطلب اقامة العمال فى المـدن على مقربة من التجار وأصحاب المشروعات الصناعية الصغيرة • وبمرور الوقت ازدادت المنافسة بين المدن الاوربية ، مما أدى الى مزيد من التخصص المهنى والتقدم التكنولوجى ، وبالتالى اتسـاع نطاق التعليم بكافة أنواعه حتى يمكن مواجهة متطلبات النظام الصناعى الجديد • وعلى الرغم من أن المدن الاوربية خلال العصور الوسطى كانت صغيرة العدد ولا تضم سوى أعداداً محدودة للغاية من مجمـوع السـكان الاوربيين ، الا أن نمـو النشاطات الصناعية والتجارية وزيادة الاهتمام بتطـوير التكنولوجيا قد أديا — فى وقت لاحق — الى نتائج سكانية حضرية بالغة الاهمية • ويبدو أن العامل الحاسم فى النمو السكانى الذى شهدته المدن الغربية خلال القرن التاسع عشر قد تمثل فى زيادة الانتاجية بوجـه عام نتيجة التوسـع فى استخدام الطاقة البخارية • ولقـد أوضح تحليل تاريخى تناول نمو المدن الاوربية فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر أن نسبة سكان المدن الكبرى (١٠٠ر٠٠٠ نسمة فأكثر) لم تكن تزيد عن ٢ر٢٪ من المجموع الكلى للسـكان[1] •

على أن النمو السكانى الحقيقى للمدن الاوربية لم يتحقق الا من خلال اتساع حركة التصنيع • ففى سنة ١٨٠١ كان حوالى ١٠٪ من سكان انجلترا وويلز يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها عن ١٠٠ر٠٠٠ نسمة • ولقد تضاعفت هذه النسبة المئوية بعد مرور أربعين عاما ، ثم تضاعفت مرة

---

(1) Kingsley Davis; «The Urbanization of the Human Population»; op. cit; p. 11.

أخرى بعد مرور ستين عاما • وفى سنة ١٩٠٠ أصبحت بريطانيا أول « دولة حضرية » فى القارة الاوربية • ومن هذه الزاوية ارتبط التصنيع بالتحضر ارتباطا موجبا • فكلما اتسع نطاق حركة الصنيع ، ازدادت نسبة السكان الحضريين • ويقدر بعض الدارسين أن عملية التحول من مجتمع يعيش ١٠٪ من سكانه فى مدن يزيد عدد سكانها عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة الى مجتمع يعيش ٣٠٪ من سكانه فى هذه المدن قد استغرقت فى بريطانيا وويلز حوالى تسعة وسبعين عاما ، وفى الولايات المتحدة ستة وستين عاما ، وفى ألمانيا ثمانية وأربعين عاما ، وفى اليابان ستة وثلاثين عاما ، وفى أستراليا ستة وعشرين عاما •وتؤكد هذه الشواهد استمرار العلاقة الموجبة بين النمو الاقتصادى ومعدلات التحضر ، كما تؤكد ما سبق أن أوضحناه من أن نمط التنمية الغربية قد ارتبط ارتباطا عضويا بنمو المدن الغربية • أما تفسير مصادر النمو الحضرى فى ضوء المتغيرات السكانية فلايزال حتى الآن مجالا خصيباً للبحث والدراسة[1] • ويبدو أن الاحتمالات المتاحة أمام الدارسين تتمثل فى اثنين : إما أن يكون النمو السكانى راجع الى زيادة عدد المواليد على عدد الوفيات (الزيادة الطبيعية) فى الحضر عنها فى الريف ، واما أن تكون هناك حركة سكانية من القرية الى المدينة • ويبدو أن أهمية الاحتمال الاول (التفاوت فى معدلات الزيادة الطبيعية بين الريف والحضر) مانزال محدودة للغاية وذلك على الاقل من وجهة النظر التاريخية • فلقد ظلت المدن الغربية تعانى لفترة طويلة خلال القرن التاسع عشر من ارتفاع معدلات الوفيات فيها بسبب الاوبئة التى كانت منتشرة ، حتى أن بعض الدارسين قد قدروا أن متوسط العمر فى لندن (سنة ١٨٤١) لم يكن يتعدى ستة وثلاثين عاما ، وستة وعشرين عاما فى ليفربول ومانشستر • على أن زيادة الاهتمام بالصحة العامة منذ سنة ١٨٥٠ قد أسهم بعد ذلك فى انخفاض معدلات الوفيات بوجه عام • وفضلا عن ذلك أدى التقدم التكنولوجى الى تحسين الظروف الطبيعية

---

(1) Brian Berry; The Human Consequences of Urbanization : Divergent Paths in the Urban Experience of the Twentieth Century; 1973; pp. 1 - 27.

للعمل، مما رفع ــ بالتالى ــ من متوسط الاعمار • واذا ما سلمنا بأن معدلات الوفيات فى المدن الغربية كانت أعلى من معدلات المواليد خــلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فان الزيادة الوحيدة المحتملة التى كان من الممكن أن تطرأ على سكان هذه المدن قد تمت عن طريق الهجرة الريفية ــ الحضرية • لذلك فان النمو السكانى الذى حققته المدن الغربية خلال القرن التاسع عشر يعود أساسا الى الهجرة إليها من المناطق الريفية •

ويبدو أن التطور التكنولوجى المصاحب للتصنيع كان من أبرز العوامل الضاغطة التى أدت الى هذه الهجرة الريفية ــ الحضرية المبكرة فى الدول الاوربية • لقد تحولت الارض فى ظل هذا المجتمع الصناعى «الجنينى» من مصدر واحد ووحيد للعيش الى مجــرد موقع يضم أعدادا كبيرة من العمال الصناعيين • كذلك فان الطلب على المنتجات الزراعية قد أصبح ــ بمرور الوقت ــ أقــل مرونة من الطلب على الخــدمات والصناعات الحضرية • وبارتفاع الانتاجية بدأت الخدمات والصناعات الحضرية تستوعب مزيدا من العاملين الذين ما لبثوا أن حصلوا على أجور لم يكونوا يتوقعونها من قبــل • ولما كانت النشــاطات غير الزراعية (وعلى الاخص الصــناعية والتجارية) تميل الى تأكيد أهمية الموقع ، بدأ التنافس على حيازة المناطق التى تتمتع بمزايا اقتصادية خاصة • والنتيجة الطبيعية المترتبة على ذلك ظهور تقــارب جغرافى أو مكانى بين المشروعات الصــناعية والتجــارية المختلفة ، ذلك التقارب الذى شــكل البداية الحقيقية للتويات الحضرية الصناعية[1] • وفى نفس الوقت بدأت التكنولوجيا الزراعية تحقق تقــدما ملموسا ، مما أدى الى رفع الانتاجية الزراعية وبالتالى تقليل عدد العمــال الزراعيين الذين ما لبثوا ان اتجهوا للعمل فى قطاعات أخرى • وفى ضــوء هذه الاعتبارات يمكننا فهم المنطق الكامن وراء الهجرة الريفية ــ الحضرية المبكرة فى معظم الدول الاوربية ، وما ترتب على ذلك من تغير نمط التوازن

(1) R. P. Beckinsale and J. M. Houston; Urbanisation and Its Problems (Basil Blackwell; 1968); Chap. II.

الريفى ــ الحضرى الــذى ظل قائما لقرون عديدة • ففى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انخفضت نسـبة السـكان الريفيين انخفاضا ملحوظا فى دول كانجلترا والسـويد وبلجيكا •

على أن معدلات زيادة التحضر لا ترتبط ارتباطا لا نهائيا بمعدلات النمو الاقتصادى • اذ أن مثل هذا الارتباط قد يشتد قوة فى المراحـل الاولى من التصنيع ، ثم ما يلبث أن يتعرض للثبات فى المراحل التالية • ففى الدول الغربية أدت وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة كالسـيارة والراديو والسينما الى تقليل عدد أيام العمل الاسبوعية وزيادة الرغبـة فى الاقامة فى المناطق الريفية المجاورة للمدن • وفى نفس الوقت أدت زيـادة حدة المشكلات فى المدن الغربية الحديثة الى طرد بعض من سكانها مفضلين الاقامة الريفية على الاقامة الحضرية • ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير عدم انخفاض عدد السكان الريفيين فى الدول الصناعية بوجه عام خلال العقود الاخيرة ، برغم انخفاض نسبة العاملين فى النشـاطات الزراعية • ففى الولايات المتحدة ــ مثلا ــ بلغ صافى الهجرة من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية ٢٧ مليون نسمة فيما بين سنتى ١٩٢٠ و ١٩٥٩ وذلك بمعـدل ٧٠٠ر٠٠٠ نسمة سنويا • وفى كل الاحوال فان معدلات التحضر فى الدول الصناعية قد انخفضت انخفاضا كبيرا بفضل التقدم التكنولوجى والنمـو الاقتصادى الهائلين اللذين تحققا خلال القرن العشرين • وعند هـذا الحد يتوقف الارتباط بين معدل التحضر ومعدل النمو الاقتصادى عن الاستمرار فى الارتفاع • أما تفسير ذلك فمتاح وميسير • اذ أن المناطق الريفية فى الدول الغربية لم يعد لديها فائضا سكانيا تصدره الى المدن ، كما أن النمو السكانى الهائل الذى طرأ على ضواحى هذه المدن قد جعل من الهجـرة الريفية ــ الحضرية أمرا صعب التحقيق • وهكذا بدأت المـدن الغربية تشـهد توازنا دقيقا بين اعتبـارات النمو الحضرى ومتطلبات التنميـة الاقتصادية ، وهو التوازن الذى طالمـا افتقدته هذه المدن خـلال القرن التاسع عشر •

أما اذا تأملنا موقف الدول النامية الآن ، وجدنا عددا كبيرا من العناصر الفريدة • فمن الحقائق السكانية المألوفة أن هذه الدول تكاد تشكل ثلاثة أرباع الكتلة السكانية العالمية ، كما أنها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحصولها على الاستقلال السياسى وهى تشهد نمـوا حضريا فاق كل تصور وخيال • ولتوضيح ذلك يكفى أن نشير الى أنه فيما بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٦٠ زادت نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانهـا عن ١٠٠ر٠٠٠ نسمة فى الدول النامية بمعدل ضعفى تلك الزيادة التى طرأت على سكان هذه المدن فى الدول الصناعية • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة[1] أن سكان المدن الكبرى فى الدول النامية يتضاعفون كل ثلاثة عشر عاما تقريبا ، كما أن هذه الدول قد أضافت الى مجموع سكان العالم حوالى ٢٦٠ مليون حضرى فيما بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٧٠ • وخـلال نفس هذه الفترة ازدادت نسبة سكان مدن الدول النامية التى يبلغ عدد سكانها ١٠٠ر٠٠٠ نسمة حتى وصلت الى ٦٧٪ لكل عقد • ومن الواضح أن هذا المعدل من النمو الحضرى يفوق بكثير ذلك الذى شهدته أمريكا الشمالية وأوربا الغربية خلال القرن التاسع عشر ، كما أننا لا نجد مؤشرات أو دلائل قوية تجعلنا نذهب الى أن هذا المعدل من النمو الحضرى فى الدول النامية سيكف عن الارتفاع خلال المستقبل القريب • وفى دراسة تنبؤية حديثة اتضـح أن ٨٥٪ من نسبة الزيادة السكانية العالمية فيما بين سنتى ١٩٧٠ و ٢٠٠٠ ستأتى من الدول النامية بعامة ومدنها الكبرى بخاصة[2] • أمـا أصرخ التناقضات التى نجدها فى الدول النامية فتتمثل فى ارتفاع نسبة الحضر فيها (حوالى ثلث السكان الحضريين فى العالم ككل) مع غلبة الطـابع

---

(1) Kingsley Davis; «Burgeoning Cities in Rural Countries»; in Scientific American's Cities : Their Origin; Growth and Human Impact; Freeman; San Francisco; 1973; pp. 220 ff.

(2) Irene B. Taeuber; «Population Growth in Less Developed Countries»; in Philip Hauser (ed.); The Population Dilemma; Prentice-Hall; Englewood Cliffs; N. J; 1969; p. 42.

الزراعى عليها • ان عدد السكان الحضريين فى الدول النامية الآن يفوق مجموع عدد السكان الحضريين فى العالم أجمع فى سنة ١٩٥٠ • واذا كانت هذه الدول تشهد نموا سكانيا هائلا ، فانها تشهد — فى المقابل — نموا حضريا كبيرا • وعلى الرغم من الاختلافات الملحوظة بين الدول النامية فى هذا المجال ، الا أن الاتجاه العام هو الارتفاع المستمر فى معدلات التحضر •

ولقد دفعت هذه المؤشرات السكانية بعض الباحثين الى القول بأن الدول النامية تشهد نموا حضريا عاليا خلال المراحل الاولى من التصنيع ، وأن ذلك يشبه الى حد كبير ما شهدته الدول الاوربية خلال القرن التاسع عشر[1] • غير أننى أعتقد أن هذا التشبيه — برغم جاذبيته واغراءاته — يتجاهل كثيرا من العوامل التاريخية (الاقتصادية والاجتماعية) المصاحبة للتحضر • اذ أن نموذج التنمية الاقتصادية والتحضر فى الدول النامية الآن لايمكن أن يكون تكرارا للنموذج الاوربى خلال القرن التاسع عشر • إن ذلك يعنى تجهيل الواقع التاريخى وتحويل الخبرات الانسانية الى صور لا معنى لها • ولعل أول الحقائق السكانية التى يجب تأكيدها هنا هى ، أن معدلات التحضر فى الدول النامية الآن لاتزيد فقط عن معدلات التحضر فى الدول الصناعية الحديثة ، بل انها تزيد أيضا عن تلك التى عرفتها الدول الاوربية خلال المراحل المبكرة من التصنيع • ولقد أوضح كنجزلى دافيز Davis أنه برغم ارتفاع معدلات التحضر فى الدول النامية عنها فى الدول الصناعية خلال القرن التاسع عشر ، الا أن هذا الارتفاع ليس كبيرا للغاية • فعند تحليل معدلات التحضر فى أربعين دولة نامية ، اتضح أن نسبة السكان الحضريين فيها قد وصلت الى ٢٠٪ خلال العقد الواحد ، بينما كانت هذه النسبة فى الدول الاوربية خلال العقد الواحد (فى أواخر

---

(1) N. V. Sovani; «The Analysis of Over-Urbanization»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 322-330.

القرن التاسع عشر) حوالى ١٥٪[1] • كـذلك أوضحت بعض التحليلات الاحصائية لبعض الدول النامية أن معدل النمو السنوى للسكان الحضريين قد وصل الى ٤ر٥٪ فيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٥٠ ، بينما كان هذا المعدل بالنسبة لبعض الدول الاوربية فى أواخر القرن التاسع عشر ١ر٢٪ • بل ان هذا المعدل لم يتجاوز فى دول العالم الجـديد (الولايات المتحـدة ، وأستراليا ، ونيوزيلندة ، وكندا ، والارجنتين) أكثر من ٢ر٤٪ سنويا ، برغم معدلات الهجرة العالية اليها من دول العالم القديم[2] • ومن اليسير فهم التفاوت بين معدلات التحضر فى كل من الدول الصناعية المتقدمة والدول النامية فى ضوء معدلات الزيادة السكانية بوجه عام ، والتوزيعات السكانية الريفية ــ الحضرية بوجه خاص • اذ أن معدل الزيادة السكانية فى الدول النامية منذ سنة ١٩٤٠ قد وصل الى ثلاثة أضعاف معدل الزيادة السكانية فى الدول الصناعية فى أواخر القرن التاسع عشر • واذا كانت العوامل السياسية قد لعبت دورا هاما فى نمو بعض المدن الاوربية خلال القرن التاسع عشر خاصة حينما بدأت المعالم القومية تتحدد بوضوح على مستوى القارة [3] ، فاننا نجد العوامل الاجتماعية ــ الاقتصادية تلعب الدور الاكبر فى نمـو سكان مدن الدول النامية ، تلك العوامل التى يمكن أن ندرجها تحت تعبيرى «العوامل الطاردة» و «العوامل الجاذبة» • وعلى الرغم من معدلات التحضر العالية فى الدول النامية ، الا أن معدلات النمو السكانى فى مناطقها الريفية مازال مرتفعة للغاية • وهنا يبدو فارق هام بين الدول الصناعية خـلال القرن التاسع عشر والدول النامية الآن • ففى الاولى كانت الاوبئة عاملاً ضاغطا محددا النمو السكانى سواء فى الريف أو الحضر ، بينما فى الثانية نجد تقدم مستوى الصحة العامة والرعاية الطبية قـد أديا الى ارتفـاع ملحوظ فى نسبة الزيادة السـكانية • والمعضلة الحقيقية التى يواجههـا

---

(1) Kingsley Davis; «The Urbanization of the Human Population»; op. cit; p. 15.

(2) Ibid; p. 15.

(3) Kingsley Davis; World Urbanization; 1950-1970; (Berkeley; Univ. of California; 1969).

السكان الريفيون فى الدول النامية هى أن استمرار الاقامـــة فى المناطق الريفية يعنى مزيدا من البطالة ، بينما الانتقال الى المناطق الحضرية لايخلو من مخاطر البطالة ، فضلا عن الآثار الجانبية العامة المترتبة على ذلك • والملاحظ أن الهجرة الريفية ــ الحضرية فى الدول الصناعية قد أسهمت كثيرا فى تخفيف الضغط على المناطق الريفية ، وبالتالى تكثيف الاستثمار الزراعى ورفع الانتاجية بوجه عام • أمـــا فى الدول النامية فاننا لا نجـــد موقفا قريبا من ذلك • فبينما هى تواجه معدلا عاليا من النمـــو الحضرى ، تعانى ــ فى نفس الوقت ــ من مشكلات حضرية حادة • والنتيجة النهائية لذلك هى : أن التحضر يتحول الى عبء على التنمية الاقتصادية أكثر مما يصبح عونا على تحقيقها •

obeikandl.com